الارتياح للغرباء

آيان مكّيوان

الارتياح للغرباء

ترجمة أحمد العلي

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

الارتياح للغرباء

تأليف: آيان مكّيوان
ترجمة وتحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-135-2

روايات REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2019

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2019
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-0322557

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
؟؟؟؟؟؟؟؟؟
Copyright © Ian McEwan 1981

مجموعة كلمات ■ KALIMAT GROUP

يا لنا، كيف نهيمُ في عالمَين
نحنُ الأمّهات والبنات
في مملكة الأبناء.
-أدريانا ريتش

ثمّة جانب متوحّش في السّفر. إنّه يدفعك للثّقة بالغرباء، ويسلبك الارتياح الأليف للبيت والندماء. أنت فيه تتطوّح خارج أيّ اتّزان، وليس في يدك ممّا تملك سوى عناصر الضّرورة: الهواء؛ النّوم؛ الأحلام؛ الشّمس؛ السّماء - تلك العناصر التي ترنو في تكوينها إلى الأبديّة، أو على الأقل، ما نتصوّره عنها.
-بافيزي

- 1 -

ما إن تحلّ ساعة الغروب، وتنشَط المدينة بأكملها وراء درفات نوافذ فندقهما الخضراء الداكنة، حتى يستيقظ كولين وماري على وقع قرقعة أدوات حديديّة متساوقة، ترتفع من مراكب معدنيّة موثقة أمام مقهىً عائم في الأسفل. تلك الهياكل المنخورة الصّدئة، تختفي أثناء الصباح، دون حمولة ظاهرة للعيان أو آلاتٍ تدفعها للإبحار. لكنّها تعاود الظهور بدءًا من أوّل المساء، ودون سبب واضح تنهال فِرَق العمّال على ظهورها بالمطارق والأزاميل. إنّه تمامًا في ساعة الغروب تلك، الغائمة السّماء، المشحونة بحرارة نهاية النهار، يجتمع نزلاء الفندق في المقهى العائم لتناول بعض المثلّجات حول الطاولات الصّفيحيّة، بينما تروح أصواتهم تملأ بفجاجة غرفتهما الفندقيّة المُظلمة، حيث ترتفع وتنخفض في موجات من الضّحك حينًا واللجاج حينًا آخر، مُزيحةً فواصل السّكون الذي كان يمكن له أن يملأ الغرفة بين قرع مطرقة وأخرى.

استيقظا معًا، أو هكذا بدا لهما، لكنهما بقيا مستلقيين، كلٌّ في سريره المنفصل. فهما، لأسباب لم تكن واضحةً لهما حينئذ، مختصمان. حامت ذبابتان بكسل حول إضاءة السّقف، وعبر ردهة الغرَف تناهى إليهما صوت مفتاح يُدار في قفل، ثمّ خُطى تقدّمَت واختفت. أخيرًا، نهض كولين، أشرع الدرفات ثمّ توجّه إلى دورة المياه ليستحمّ. بينما ماري، التي ما زالت وقتها منغمسةً فيما رأت من الأحلام ومعانيها، استدارت في استلقائها إلى جنبها لتواجه الجدار تفاديًا لكولين فيما يعبر جوارها. جريان المياه وراء الباب، قربها، حرّضها على الاسترخاء فدبّ الخدَر في أوصالها، وأغمضَت عينيها.

كلّ مساء، خلال ساعة التأمّل التي يقضيانها في الشُرفة، قبل أن ينطلقا خارجَين إلى المدينة بحثًا عن مطعم، كان واحدهما يُصغي بصبر إلى الآخر بينما يروي أحلامه، منتظرًا تَرَفَ أن يروي بدوره ما رأى أيضًا. أحلام كولين هي تلك التي يحمدها الأخصّائيّون النفسيّون: الطيران – كما يقول؛ وسقوط أسنان منخورة؛ والظهور عاريًا أمام غريب جالس في مكان ما. أمّا ماري، فإن فراشها الصّلب، وحرارة المكان المنفّرة، والمدينة التي بالكاد اكتشفتها، اجتمعت كلّها لتُطلق في نومها العنان لخليطٍ صاخب من أحلام حِواريّة مهتاجة كانت – كما تشكو – تنمّل ساعات يقظتها، فالحوارات تجري بينما الكنائس العتيقة الأنيقة، وأشباهها من الأبنية، والجسور الحجريّة فوق قنوات المياه، تنسدل جميعها رائقةً في خلفيّة شبكيّة عينيها مثل مشهد مُنعكس على نافذة بعيدة. لكنها غالبًا ما تحلم بطفليها، أنّهما في خطر، وأنّها عاجزة عند مدّ يد العون لهما أو في حال مشوّش يمنعها من المساعدة. باتت طفولتها متداخلة مع طفولتهما بارتباك

يقلقها. لقد صارا، ابنها وابنتها، قلقها الملازم لها طول الوقت مؤخّرًا، ويخيفانها بإصرارهما على تكرار أسئلة بعينها: لماذا رحلتِ دوننا؟ متى ستعودين؟ هلّا قابلتِنا في محطة القطار؟ لا، لا – حاولَت أن توضح لهما – أنتما من يجب أن تأتيا للقائي. أخبرت كولين أنها حلمت بابنيها وقد اعتليا السرير معها، كلّ في جهة، وهكذا استلقيا يتماحكان طوال الليل عبر جسدها النائم. بلى فعلتُ. لا لم تفعلي. لقد أخبرتكِ. لا لم تخبرني... وهكذا حتى استيقظَت مُنهكةً فيما كفّاها تضغطان بشدّة على أذنيها. روَت لكولين أيضًا عن زوجها السّابق وكيف اقتادها إلى ركنٍ من البيت، كما حدث فعلًا مرّة، وراح يشرح لها بأنَاة كيف تعمل آلة تصويره اليابانيّة الدّقيقة، ناصبًا لها الاختبار تلو الآخر عن تعقيداتها. وبعد ساعات من ذلك، راحت تبكي وتتبرّم، وترجوه الكفّ عن ما يفعل، لكن لم يكن لأيّ شيء أن يوقف ذاك الشّرح الأشبه بطنينٍ متعنّت لا يهدأ.

نافذة الحمّام تطلّ على باحة مُغلقة، وفي هذه السّاعة من النهار، تنهض حتى هي بأصوات الغرف المتلاصقة التي تشكّلها مع مطابخ الفندق. لحظةَ يوقف كولين تدفّق مياه الاستحمام، يرفع الرّجل الساكن أسفله قعيرته فورًا، كما في الأماسي الماضية، بجزئه الغنائي من ثنائيّة الناي السّحري[1]. صوته يعلو هدير المياه الجارف وأصوات لَطْخ الجلد وترغيته بالصّابون ودعكه. يؤدّي الرّجل فقرته الغنائيّة بالإيمان التّام الذي يحمله مَن يُنكر أن ثمّة جمهورًا ما يستمع إليه؛ يصدع ويصيح بأعلى النوتات، ويستبدل الدندنةَ بما ينساه من

(1) الناي السحري (دِي تْساوَبر فْلُوتَه) هي أوبرا من فصلين ألّف موسيقاها موتسارت عام 1791، وهي أحد أشهر الأعمال الأوبرالية التي قام المؤلف الموسيقي النمساوي بكتابتها.

كلمات، ويُصدر خوارًا عاليًا في المقاطع الأوركستراليّة. "الرّجل والمرأة، المرأة والرّجل، يشكّلان معًا عَقْدًا ربّانيًّا[2]". هكذا حتى ينتهي الرّجل من الاستحمام فيتحوّل غناءه إلى صفير خافت.

وقف كولين قبالة المرآة حتى انتهى الرجل. ولسبب يجهله، راح أثناء ذلك يحلِق لحيته مرّة ثانية. نجحا، منذ وصولهما، في اتّباع عادات نومٍ منضبطة (لم يسبق أن أخفقا في اتّباعها سوى مرّة واحدة عندما تضاجعا) والتزما أيضًا بهذا الفاصل الرّائق من الهوَس بالجسد والاستغراق فيه، حيث يتهندمان برَويّة قبل حلول وقت العشاء والتنزّه في المدينة بحثًا عن مطعم. خلال ذاك الوقت من الاهتمام بالجسد، يتحرّكان ببطء شديد، ونادرًا ما يتحادثان. يستعملان عطورًا غالية الثّمن، ابتاعاها من السّوق الحرّة، ويمسحان على جسديهما مساحيقَ مشابهة. يُمعِنان في اختيار ملابسهما دون أن يستشير أحدهما الآخر، كأنّ ثمّة أحدًا بين آلاف الجموع التي سيواجهان بعد قليل يهتمّ الاهتمام كلّه بمظهرهما. وأثناء ممارسة ماري رياضة اليوغا على أرضيّة الغرفة، يلفّ كولين دُخَيْنَة ماريوانا، ثمّ يدخّنانها معًا في الشُرفة لتُعزّز شعورهما بالزّهو والسّعادة لحظةَ يعبران بهو الفندق مستقبلَين هواء المساء القِشْدِيّ.

بينما هما في الخارج، لا صباحًا فقط، تقوم خادمةٌ بترتيب فراشَيهما، وتغيير الشراشف أحيانًا إذا اعتقدت أن ذلك ضروري. وجدا نفسيهما، وهما اللذّين لم يعتادا حياة الفنادق، يمتلآن بأحاسيس حميمة تجاه تلك الغريبة التي بالكاد رأياها. ترفع الخادمة مناديلهما المستعملة؛

(2) مقطع من الناي السحري: Mann und Weib, und Weib und Mann, Together make a godly span.

وتضع أحذيتهما الملقاة بإهمال في المكان المخصّص لها، وتصفّها في خطّ مستقيم؛ وتطوي ملابسهما المستعملة وتصفّها مرتّبة بعضها فوق بعض على الكرسي في دقّة وحرص؛ وتجمع بقايا المال والفكّة لتضعها في شدّات صغيرة معًا على المنضدة بين السريرين. وهكذا، بسرعة، باتا يعتمدان عليها تمامًا في الاهتمام بشؤونهما، وراح كسلهما ينمو أكبر فأكبر. صار واحدهما غير قادر على الاهتمام بشؤون الآخر. إنّهما ليسا قادرين في هذا الطقس الحار على نفش وسائدهما ونفضها، أو الانحناء لالتقاط فوطة عن الأرض. لكنّهما، في الوقت نفسه، طوّرا في نفسَيهما تسامُحًا مع الفوضى. مرّة، في ساعة متأخرة من صباح ما، عادا إلى غرفتهما ليجداها كما تركاها: ببساطة ليست مؤهّلة للسّكن، فلم يكن لهما خيار سوى الخروج مرّة أخرى والعودة لاحقًا عندما يدبّر الفندق أمره ويُصلح الوضع.

ساعات الصّباح، التي تسبق خلودهما إلى نوم الظّهيرة، كانت محلّ اتفاق وتماثل بينهما، رغم صعوبة تحديد نشاطهما خلاله. فقد كانا في منتصف الصّيف، والمدينة فائضة بالسّائحين. كلّ صباح، باكرًا بعد الإفطار، ينطلق كولين وماري رفقة أموالهما ونظّارتيهما الشمسيّتين وخرائط المدينة لينضمّا إلى الجموع المحتشدة المندفعة عبر جسور القنوات المائيّة، والشوارع السفليّة الضيّقة. إنهما ينجزان بإخلاص الواجبات العديدة التي تُقلّدها هذه المدينة الشّجنيّة سائحيها: يزوران كنائسها الرئيسة والثانوية؛ ومتاحفها؛ وأماكنها المكتظّة بالكنوز. وفي شوارع السّوق، يقضيان معظم الوقت عند واجهات عرض زجاجيّة، يناقشان أمر ابتياع بعض الهدايا المناسبة. ما زالا في حاجة إلى دخول بعض المتاجر الأخرى لينتهيا من هذا الأمر. ورغم حملهما الخرائط،

فإنهما يضيعان بسهولة، حدث ذلك مرارًا، وقد يقضيان ساعةً أو نحوها يحومان حول الطريق الذي غادراه ليعودا إليه، ثمّ يستوثقان من موضع الشّمس – طريقة كولين – ليجدا نفسيهما يقتربان من مَعْلَمٍ يميّزانه من جهة لم يتوقّعاها، ومن طريق مختلفة. ورغم ذلك، يبقيان تائهين عن الفندق. وعندما يطول بهما هذا الحال ويتعقّد، وترتفع الحرارة إلى درجة لا تُطاق وتشتدّ، يذكّران بعضهما بسخريةٍ مُرّة أنهما "في إجازة". يكونان حينها قد قضيا ساعات طويلة في البحث عن مطعم "مناسب" أو محاولة العثور على المطعم الذي زاراه قبل يومين، لكن دون جدوى. غالبًا يعثران على تلك المطاعم المناسبة ممتلئة إلى آخرها، أو إذا كانت الساعة قد تخطّت التاسعة، فإنها تكون على وشك الإغلاق. أمّا إذا ذهبا إلى مطعم لا هو ملآن ولا على وشك الإغلاق، فإنهما يكونان قد عزما على تناول الطعام فيه قبل ساعات من حلول جوعهما.

ربما، لو كان كلّ واحد منهما وحده، لأمكنه اكتشاف المدينة بمُتعة، ستكون النّزوة دليله، سيُسلم نفسه للطّرقات، ولن يأبه أكان تائهًا أم لا، ولربما أفرحه ذلك. ثمّة ما يُكتشَف هنا، الكثير منه، على المرء أن يتنبّه فقط ويُبقي ذهنه مشتعلًا. لكنّهما يعرفان بعضهما معرفتهما نفسَيهما. والحميميّة التي بينهما، الأشبه بحقائب أمتعة كثيرة يتوجّب عليهما حملها، كانت مصدر قلقٍ لكليهما. ولهذا فهما، رفقة بعضهما، يسيران ببطء، بتثاقل – كأنهما يؤدّيان لبعضهما تسوياتٍ جنائزيّة – وينتبهان لانعطافات مزاجَيهما الدقيقة، ويجبران الكسور. لا يصبح الواحد منهما حسّاسًا إذا كان وحده، ولا يرى في أيّ كلمة أو حركة بسيطة إهانة له. لكنهما، إذا باتا معًا، يفاجِآن بعضهما بإهانات

بطُرُق وأساليب لم تكن متوقعة. ثم يغدو المُسيء – حدث ذلك مرّتين منذ وصولهما – متوترًا، لأنّه لا يعرف هل أكثر من استرضاء المُساء إليه بما أشعره بالتقزّز؟ ولذلك سوف يتابعان بصمت اكتشاف أزقّة المدينة الملتوية، وانفراجاتها المفاجئة المُفضية إلى مساحات عامّة واسعة. وهكذا، مع كل خطوة يخطوانها داخل المدينة، فإن المدينة تبتعد عنهما، تبتعد بقدر ما ينغلق الواحد منهما عن الآخر وهما معًا.

نهضت ماري، مُنهيةً بذلك جلسة اليوغا. وبعد أن أمعنت طويلًا في اختيار ملابسها الداخلية، راحت ترتدي ثيابها. من خلال النافذة الفرنسية نصف المفتوحة، أمكنها رؤية كولين في الشّرفة، مرتديًا ملابسه البيضاء كاملةً، يتمدّد في كرسيّ بلاستيكيّ طويل للمسابح، ويدُه مُرخاة، تتدلّى قُرب الأرض. أخذَ نفسًا، ثم أمال رأسه وكتم نفَسه. وأخيرًا نفخ الدخان خلال أصص زهور إبرة الراعي، التي تتراصف مزيّنة سور الشّرفة. إنّها تحبه، لكن ليس في هذه اللحظة. ارتدت بلوزة حريريّة وتنّورة قطنيّة بيضاء. وعندما همّت بالجلوس على حافة السّرير كي تعقد خيوط صندلها، التقطت خريطة المدينة من منضدة السرير. وفقًا للصور، فإن المناطق الأخرى من هذه البلاد تحوي مروجًا وهضابًا وشطآنًا دون مرتادين، وثمّة طريق يشق غابةً من وسطها، ويتلوّى طويلًا لينتهي عند بحيرة خلّابة. بينما هنا، في هذا الشّهر الوحيد من العام الذي تكون فيه حُرّة دون عمل، فإن التزامها كان بزيارة المتاحف وارتياد المطاعم. طقطق كرسيّ كولين، فانتبهت ماري وخفّت إلى مرآة الزّينة، وشرعت ترجّل شعرها بضربات قصيرة قاسية.

جلب كولين معه، إلى الداخل، ما تبقّى من دُخَيْنَة الماريوانا المشتعلة، وعرضها على ماري، لكنها رفضت – كان رفضًا سريعًا، همهمةً: لا شكرًا – دون أن تستدير إليه. لكنه لم يبتعد عنها، بل تلكّأ واقفًا خلف مقعدها، ناظرًا إليها في المرآة معها، يحاول اصطياد نظرة عينيها. لكنها بقيَت تنظر باستقامة وجديّة إلى نفسها، وتابعت ترجيل شعرها. أجرى إصبعه على دائرة كتفها، فالصّمت لابد له أن ينكسر، طال الوقت أو قصر. هَمّ كولين بالذهاب، لكنّه عدل عن رأيه. فسعل وتنحنح، ثم أراح كفّه على كتفها. الغروب في الخارج يوشك على المثول، لكن ثمّة نقاشات في الداخل لا بدّ من إعادة فتحها. إنّ تردّده في طرحها، أو إحجامه عن فتح أيّ من تلك النقاشات، هي دُخَيْنَة الماريوانا، لقد دفعته إلى حَيرة لا مخرج منها: فلو ابتعد الآن عن ماري، بعد أن وضع كفه على كتفها، فإنّها قد تشعر بالإهانة... لكن ها هي مستغرقة في ترجيل شعرها دون حاجة إلى كفّة، وبدت كأنها تنتظره أن يبتعد عنها... لماذا؟ لأنّها استشعرَت حيرَته وتردّده في البقاء جوارها، فأحسّت بالإهانة؟ لكن هل كان حقًّا محتارًا؟ وكي تزداد الأمور سوءًا، أجرى كولين إصبعه على طول عمودها الفقري. إنها الآن تقبض على المشط بيد، وفي راحة اليد الأخرى المفتوحة تقبع الشّعيرات المنزوعة جرّاء الترجيل، هكذا، وما زالت تنظر إلى نفسها في المرآة. مال كولين نحوها وقبّل ظهرَ عنقها، وعندما رآها لا تعير وجوده أيّ اهتمام، قطع الغرفة مُطلقًا زفرةً مرتفعة، وعاد إلى الشُرفة.

استوى كولين على كرسيّه، تعلوه قُبّة هائلة الاتساع من السماوات الصافية. زفرَ مرّة أخرى، لكنّها هذه المرّة زفرة راحة. توقف عمّال المراكب عن الطّرق، ووضعوا أدواتهم جانبًا، ثمّ تفرّقوا في مجموعات

تواجه الغروب وتدخّن السجائر. أمّا النزلاء في المقهى العائم، فقد بدأوا يحتسون الشّراب كي يفتحوا شهيّتهم أكثر لتناول الأطعمة، فباتت أحاديثهم خافتة ومتواصلة. قرقعة مكعبات الثّلج في كؤوسهم مسموعة، وكذلك نقرُ كعوب أحذية النادلات الحصيفات، شبه الميكانيكي، على أرضيّة المقهى الخشبيّة. نهض كولين ومدّ نظره إلى عابري الشارع أسفل الفندق. سُيّاح، أكثرهم مُسنّ، في أأُنق حُلَل الصّيف وأزياءه، يقطعون الرّصيف ببطء الزواحف. ومن حين إلى آخر، يتوقّف زوجان عن السّير ينظرا باستحسان إلى النزلاء في المقهى العائم، يحتسون الشّراب بينما تنتصب خلفهم ستارة عملاقة من الغروب والمياه الأرجوانية. أحد المسنّين أوقف زوجته أمام المقهى، ثم انحنى بفخذين هزيلين مرتعشين كي يلتقط لها صورة. مُحتسو الشّراب على طاولة خلف المرأة مباشرة رفعوا كؤوسهم بلُطفٍ بالغ للكاميرا. لكن المصوّر، السّاعي إلى التقاط عفويّة الأجواء، استقامَ ولوّح بيده الثانية لهم محاولًا إعادتهم إلى ناصية وجودهم العفويّ غير المبالي. وفقط حين فقد محتسو الشّراب الاهتمام بالأمر – كانوا جميعهم شُبّانًا – رفع المُسنّ الكاميرا وقرّبها من وجهه، ثانيًا رجليه الرّاعشتين مرّة أخرى. لكن زوجته حينها كانت قد ابتعدت قليلًا عن مكانها السابق، وانشغلت بالتنقيب داخل شيء ما في يدها، مُعطيةً الكاميرا ظهرها لتقابل الغروب، سامحةً لأشعة الشمس الأخيرة بإضاءة جوف حقيبة يدها. صاح عليها زوجها، فعادت إلى مكانها بخفّة. لكنّ صوت انطباق حقيبة اليد أثار من جديد اهتمام الشُبّان إلى الزّوجَين، فعادوا إلى الحياة. استووا جميعًا على كراسيهم، ورفعوا كؤوسهم وتبسّموا ابتسامات واسعة بريئة. وبزفرةٍ عالية وامتعاظ

واضح، جذب الرّجل ذراع زوجته بعيدًا عنهم، لكنّهم لم يلحظوا ذلك، بل صاحوا بغتة بأنخابهم وقرعوا كؤوسهم ووزّعوا الابتسامات فيما بينهم.

ظهرت ماري عند النافذة الفرنسيّة حيث كولين، مرتدية سترة محبوكة من الصّوف، مهفهفة، معلّقة على طرفَي كتفَيها. فاستثاره ذلك، وبتجاهل لقواعد اللعبة الدائرة بينهما، راح يروي لها الدراما القصيرة التي حدثت للتوّ في الشارع. وقفَت إلى سور الشُرفة، وراحت تتأمّل الغروب بينما يُنهي كلامه. لم تنقُل نظرتها إليه عندما أشار إلى الشبّان حول الطاولة في الأسفل، بل أومأت إيماءة واهنة وحسب. لم يستطع كولين بلُطف أن يُعيد تصوير سوء الفهم والخلافات المُبهمة التي تُشكّل، وِفقًا له، أساس قصّة الشبّان والمُسنّ. بل وجد نفسه، عوضًا عن ذلك، يضخّم أحزانها الصّغيرة، ويصنع منها مسرحيّة قودفيليّة[3]، ربما كي يجذب انتباه ماري. لقد وصف الرّجل المسنّ بأنّه "طاعن في السنّ وهزيل بشكل مُدهش" بينما زوجته "معتوهة فوق كلّ تصوّر" وشُبّان الطاولة "ثيرانٌ بليدة" وحوّل زفرة المُسنّ وامتعاظه إلى "صرخة غضب عارمة بشكل مُدهش". في الحقيقة، إن استعماله المتكرّر لعبارة "بشكل مُدهش" يُشير إلى خوفه من أنّ ماري قد لا تصدّقه، أو أنّه هو لم يصدّق نفسه. عندما انتهى، ابتسمت ماري نصف ابتسامة وأطلقت همهمةً قصيرة، وتابعت صمتها.

كلاهما يقف على مسافة بضع أقدام من الآخر، يحدّق في امتداد المياه بصمت. الكنيسة الضخمة الواقفة وراء قناة المياه الواسعة،

(3) القودفيل: شكل مسرحي كان واحدًا من أكثر أشكال الترفيه شعبية في أمريكا الشمالية عدّة عقود. يتكوّن من سلسلة فصول من أعمال كوميدية ورياضيّة ومسرحيّة وغنائيّة وسحريّة وغيرها من الأشكال، ليس بينها أيّ علاقة.

باتت الآن أشبه بالظّلال، وعبَرَ القناَة جوارها رجُلٌ في قارب ضيّق، كان يُعيد نظّارته إلى محفظتها، ثم جثا ليعيد تشغيل المحرّك. شارَة الفندق الخضراء تعلوهما إلى اليسار، تحمل أضواء نيون تُصدر طقطقة عالية متّصلة مصحوبة بأزيز خافت. ذكّرَت ماري كولينَ أنّ الوقت سيتأخّر إن لم ينطلقا فورًا قبل أن تُغلق المطاعم أبوابها. فوافقها، لكنّهما لم يتحرّكا. جلس كولين على أحد كراسي المسابح الطويلة تلك، ولم يمضِ من الوقت الكثير حتى جلست ماري على أحدها أيضًا. صمتٌ قصيرٌ آخر، ثمّ مدّ كلّ منهما يده نحو الآخر. يعتصر واحدهما كفّ الآخر، فيُجيبه بمثلها. قارَبَا بين كرسيّيهما، وهمسا معتذرَين. راح كولين يتحسّس نهدَي ماري، فقبّلت شفتيه أوّلًا، ثمّ بنعومة – وأمومة بطريقة ما – قبّلت أنفَه. تابَعا الهمس والتقبيل، ثم نهضا واحتضنا بعضهما، وعادا إلى غرفة النوم، حيث تعرّيا في الظُّلمة الشّفيفة.

ما عاد الجنس بينهما شغفًا محلول الوثاق. لقد غدت المُتعة في بُطئه دون عجَل؛ في اللطافة؛ في أُلفَة طقوسه وأساليبه؛ في الأمان، حين ينطبق الجسدان وتتداخل الأطراف بدقّة؛ في الرّاحة، كأنّ واحدهما قالَب والآخر قد صُبّ فيه. كانا سخيّين على بعضهما ومُسترخيين، لا إلحاح ولا ضجّة. ليس لمضاجعتهما بداية واضحة أو نهاية، وغالبًا ما يُنهيها، أو يعترضها، النوم. يُنكران لبعضهما، دومًا وبسخط، أنّ الجنسَ بات مُملًّا. ويزيدان أحيانًا بالقول إنّه يصعب حينها على واحدهما الشّعور بأن الشخص الآخر كائنٌ منفصل عنه. عندما ينظران إلى بعضهما خلال اشتباكهما، كأنهما ينظران في مرآة مضبّبة. وعندما يتحادثان عن أصول الجنس وسياساته، لم يكونا يقصدان

من كلامهما نفسَيهما. إنّه هذا التواطؤ، تحديدًا، ما جعل الواحد منهما حسّاسًا وهشًّا تجاه الآخر، ويُجرَح بسهولة عندما يكتشف من جديد أنّ حاجاته ورغباته تختلف الاختلاف كلّه عن رغبات الآخر وحاجاته. كانا يُديران تلك المحادثات في داخلهما بصمت، ثمّ تأتي ساعة الاسترضاء وتسوية الخلافات، مثل هذه السّاعة التي يكونان فيها في أشدّ حالات الشدّ والجذب، فيغدوان ممتنّان لها بعُمق.

دخلا في قيلولةٍ قصيرة، ثمّ ارتديا ثيابهما على عجل. وبينما خفّ كولين إلى الحمام، خرجت ماري إلى الشُرفة تنتظره. أُطفئت شارة الفندق، وخلا شارعه من الناس. ثمّة نادِلَان في المقهى العائم يرفعان الكؤوس والأكواب عن الطاولات، والزّبائن المعدودون الباقون هناك لم يعودوا يشربون شيئًا. لم يسبق لكولين وماري أن تأخّرا هكذا على مغادرة الفندق، ولسوف تكرّر ماري أن السّبب في كلّ ما حدث لاحقًا يعود إلى ذلك. راحت تذرع الشُرفة بصبر نافد، آخذةً في أنفاسها رائحة قديمة بالية تنبعث من أصص الزهور. المطاعم أغلقَت أبوابها الآن، لكن ثمّة مطعم لا بدّ أنّه مفتوح في طرفٍ بعيد من المدينة، هذا إذا عثرا عليه بالطبع، وهو حانة لا تغلق إلا في ساعة متأخرة، يقف خارجها رجلٌ يبيع النقانق. في الثالثة عشرة من عمرها، عندما كانت مثاليّة، حريصة، فتاة مدرسة تُشعّ بالحياة ومُفعمة بمئات الأفكار عن تطوير نفسها، أبقت على مُفكّرة، تكتب فيها كل ليلة أحد أهداف الأسبوع المُقبل ومهامّه. لقد كانت مهمّات بسيطة قابله للتحقّق، وكم يُريحها أن تحمل قلمها وتُلغيها واحدة تلو الأخرى بعد إنجازها بينما الأسبوع يمضي إلى نهايته: التدريب على آلة التشيلو، وأن تُحسن معاملة والدتها، والسّير إلى المدرسة للاحتفاظ بثمن تذاكر الحافلة.

إنها تشتاق إلى تذوّق تلك الرّاحة الآن، أن يكون الوقت والأحداث تحت السّيطرة ولو قليلًا. كأنها تسير نائمة من لحظة إلى لحظة، وتمضي أشهرٌ بأكملها هكذا، دون ذكريات، دون أن تحمل أقلّ انطباع عن أنها واعية وتتقدّم.

"جاهزة؟" نادى كولين. عادت إلى الداخل، مُغلقةً النافذة الفرنسيّة خلفها. أخذت المفاتيح من المنضدة بين السريرين، أقفلت الباب، ولحقت كولين نازلَين الدّرَج المُظلم.

- 2 -

عبر المدينة، في ملتقيات الشوارع العريضة، أو في أركان الساحات العامّة المزدحمة، ثمّة أكشاك صغيرة مصمّمة بعناية، تغطّيها نهارًا صُحُف ومجلات بلغات عدّة، وصفوف من بطاقات بريديّة طُبعت عليها صورُ أشهر المعالم، وبعض الأطفال، والحيوانات، والنساء اللواتي كنّ يضحكن وقت التقاط الصور.

يجلس البائع داخل الكُشك، بالكاد يُرى عبر نافذة المحاسبة الضيّقة، يكمُنُ في ظُلمَةٍ مُفترضَة. بالإمكان هنا أن تشتري السجائر دون أن تعرف أرجُلٌ مَن باعكها أم امرأة. لا يرى المُشتري سوى عينين بُنيّتين عميقتين وأصيلتَين، وكفّ شاحبة، ولا يسمع إلا همهمة شُكرٍ خافتة.

الأكشاك هي مراكز النمائم والشائعات في الأحياء السكنية؛ ثمّة رسائلٌ وأغراضٌ تُترَك فيها. غير أن السيّاح الذين يسألون عن الاتجاه الصحيح، يُقابَلون بإشارة خجولة نحو واجهة الخرائط المعروضة، التي يسهُل تجاوزها بين صفوف المجلات ذات الأغلفة المتوهّجة.

ثمّة أنواع مختلفة من الخرائط معروضة للبيع، أقلّها جاذبيّة هي تلك التي تزدحم بالإعلانات، التي لا تُظهر سوى الواضح من المعالم السياحيّة، مُبرزةً مواقع مطاعم ومحلّات بعينها. لا تُرسَم في تلك الخرائط سوى الشوارع الرئيسة فقط. وتتوفّر خرائط أخرى على شكل كتيّبات صغيرة سيّئة الطباعة، وجدَ كولين وماري نفسيهما يضيعان بسهولة في تلك الخرائط بينما ينتقلان فيها من صفحة إلى أخرى. لكن هناك خرائط أخرى غالية الثمن، رسميّة وموثّقة، تُظهر المدينة بأكملها وتسمّي كلّ تفصيلٍ حتى أضيق الممرّات والأزقّة. عند فردها، يغدو مقاسها أربعة أقدام في ثلاثة، مطبوعة على أوهى الأوراق وأرقّها قاطبة، يستحيل استعمالها وقت الحاجة في الهواء الطّلق إلا بفردها على طاولة وتثبيتها بمشابك. وأخيرًا، وقعت أعينهم على سلسلة من الخرائط التي تحمل أغلفتها خطوطًا زرقاء وأخرى بيضاء، تقسّم المدينة إلى خمسة أقسام للتسهيل، لكن تلك الأقسام للأسف لا تتداخل. يقع الفندق في الرُّبع العلويّ من القسم الثاني، وثمّة مطعم باهظ الثّمن على سوئه، مُشار إليه أسفل القسم الثالث. أمّا الحانة التي يقصدانها الآن فتقع في منتصف القسم الرّابع. غير أن كولين لم ينتبه إلى أنهما لم يجلبا الخرائط معهما إلّا عندما تجاوزا أحد الأكشاك وقد أقفل مصاريعه وأطبق ألواحه الخشبيّة لحلول المساء. فبات واثقًا أنّهما، دون خرائطهما، سيتيهان الليلة.

لكنّ كولين لم يقل شيئًا. تسبقه ماري في السّير بضع خطوات، تمشي بهدوء واتّزان كأنها تقيس مسافةً ما، مُكّتفة اليدين، محنيّة الرّأس. إنّها تتفكّر. أفضت بهم الدّرب الضيّقة لاحقًا إلى ساحة عامّة مرصوفة بالحجارة، مُضاءة وواسعة، يتوسطها نصبٌ تذكاريّ لأيّام الحرب؛ كُتَل

من أحجار الصوّان غير المصقولة، جُمعَت لتشكّل مكعّبًا ضخمًا، يشمخ فوقه جنديّ يلوح ببندقيّته. إنهما يعرفان هذه السّاحة جيّدًا، فهي نقطة انطلاقهما إلى كلّ وُجهة تقريبًا. وسِوى رجُلٍ يكوّم كراسي بعضها فوق بعض أمام مقهى، وكلب يراقبه، وبعيدًا عنه يقف رجل آخر، فإن المكان خُلوّ من أيّ أحد.

عبرا الساحة في خطّ مائل، ودخلا شارعًا عريضًا، تنتصب على جانبيه متاجر لبيع أجهزة تلفاز وغسّالات صحون وأثاث. يضع كلّ متجر جهازَ إنذار ضد السّرقة بارزًا للعيان. إنّه الغياب التام لأيّ ازدحام في المدينة ما أتاح للسّائحَين حريّة الضياع بسهولة. عبَرا الشوارع دون تثبّت. وكانا، عفوَ خاطرهما، ينفذان من شارع ضيّق إلى أضيق مجذوبَين بشهوة العثور على مُرادهما في الظّلام، أو لأنّهما يتبعان رائحة الأسماك المقليّة. لا لوحات إرشاديّة. ودون وجهة واضحة، راح السّائحان يسلكان الطُرُق كمن يختار بين الألوان لونًا يُعجبه. إنّ رَسْمًا للدروب التي سلكاها حتى تاها قد يعبّر بدقّة عن خياراتهما الاعتباطيّة، عن قصدهما الضائع. ومنذ متى اتفق اثنان عندما يُتاح لهما الخيار؟ كان كولين يسير محدّقًا في ظهر ماري. إضاءة الشارع محَت لون بلوزتها، فباتت على خلفيّة الجدران المسوّدة تلمع فضّيًّا وبُنيًّا داكنًا، مثل شبح. لوحا كتفيها المستقيمَين يعلوان ويهبطان في اتّزان مع مشيتها الهادئة، ما مَوّج بلوزتها السّاتانيّة في مروحة من الطيّات. وشعرها الذي لمّت بعضه بمشبك الفراشة، بات يروح ويجيء على كتفيها وأعلى رقبتها.

توقّفت ماري عند نافذة متجر كبير يعرض سريرًا واسعًا. فاقترب منها كولين حتى جاورها، تريّث قليلًا، ثم تجاوزها. رأت مانيكانَين؛ أُلبِسَ

الأوّل منامَةً حريريّة فاتحة الزُّرقة؛ والآخر منامةً نسائيّة تنسدل حتى الفخذين، مزخرفة بخيوط ورديّة، معروضة بين شراشف مُلقاة بفوضويّة عن قصد. لكن هذا المشهد لم يُصنَع باحتراف عال، فالمانيكانان مصنوعان من القالب نفسه، وصلعاوان، ومُبتسمان بغموض. يستلقيان على ظهريهما. لكن، بالنظر إلى ترتيب أعضاءهما – كلاهما يرفع يدًا في التواء مؤلم إلى فكّه – فمن الواضح أنهما يحاولان النوم كلّ على جنبه، ليتقابلا في حنان. لكن ما أوقف ماري هو ظهر السرير؛ لَوحٌ مبطّن ومزرّر، يتجاوز عرضه السّرير بقدم من كلّ جهة. كانت جهة مانيكان المنامة الرجاليّة، على الأقل، مصمّمة مثل لوح تحكّمٍ بالطاقة، أو لوح مفاتيح طائرة صغيرة؛ ثمّة جهاز هاتف مثبّت في اللوح، وساعة رقميّة، ومفاتيح مصابيح، وإضاءات صغيرة، ومشغّل أشرطة، ومذياع، وخزانة صغيرة لتبريد المشروبات، وثمّة قُرب الوسط دائرتان مثل عينين تحدّقان غير مصدّقتين، ساعتا قياس. أمّا جهة المانيكان النسائيّ، حيث تحتلّ مرآةٌ بيضاويّة زهريّة اللون غالبَ المساحة، فالفرق شاسع، فهناك دُرج خزانة لأدوات الزّينة، ورفّ مجلات، وجهاز لاسلكي لسماع بكاء الأطفال. تعلو خزانة التبريد ورقة شيك، كُتب عليها تاريخ الشهر القادم، واسم المتجر، ومبلغ ماليّ كبير، وتوقيع عريض الخطوط. لاحظت ماري أن مانيكان الرّجل يُمسك قلمًا. خطَت بضع خطواتٍ جانبًا، فتغيّرت الانعكاسات على زجاج نافذة العرض، ثم استكانت، ما غيّر زاوية النظر إلى المانيكانين، فباتت أطرافهما مرفوعة دون سبب، مثل حشرتين فاجأهما السّم. أدارت ظهرها إلى المتجر، وكان كولين قد ابتعد عنها حوالي خمسين ياردة، في الجهة المقابلة من الشارع، كتفاه محنيّتان، وكفّاه غارقان في جيبيه،

ناظرًا إلى قائمة عيّنات سجّاد، يقلّب صفحاتها بآليّة. لحقت به وسارا معًا في صمت حتى وصلا مفترق طرق في نهاية الدرب، فتوقفا.

قال كولين بمواساة "تدرين، أنا أيضًا أمعنتُ النّظر في السّرير إيّاه قبل أيّام"

حيث يفترق الطريق، يقف ما كان يومًا ما مسكنًا جليلًا، قصرًا. ثمّة صفٌّ من السِّباع الحجريّة تحدّق نحو الأسفل من صدر الشّرفة الصّدئة في الطابق الأوّل. النوافذ ذات الأقواس العاليّة، المحدودة بأعمدة مخدّدة بنعومة ومنقورة نقْرًا، غُطّيَت بصفائح مموّجة تُستخدم للصق الإعلانات، هكذا حتى نوافذ الطابق الثاني. أغلب الإعلانات والمُلصقات تنتمي إلى الجماعات النسويّة واليسار المتشدّد، وأقلّها إلى دوائر محليّة تُعارض خطّة إعادة بناء المسكن. وثمّة في العُلُوّ، فوق الطابق الثاني، لَوح خشبيّ عريض يحمل حروفًا حمراء مُشعّة تشكّل اسم سلسلة متاجر باتت تملك المبنى، وأسفل ذلك خُطّ بالإنجليزيّة بين علامتَي تنصيص "المتجر الذي يضع حاجاتك أنت أوّلًا!" وصُفّت أمام الباب الرئيس، مثل زبائن لم يكتمل نموّهم بعد، أكياس قمامة. داسًّا كفّيه في جيبَيه الخلفيّين، أطلّ كولين في الشّارع الأوّل من المفترق، ثم عاد وأطلّ في الثاني، "كان ينبغي علينا جلب تلك الخرائط".

في تلك الأثناء، كانت ماري قد صعدت بضع درجات إلى القصر، وراحت تقرأ مُلصقًا. "النساء أكثر راديكاليّة هنا"، فهمست ماري "وأكثر تنظيمًا".

تراجع كولين قليلًا وشرعَ يقارن الشارعين ببعضهما. لقد ذرعا مسافة طويلة من الطريق، فمال أحدهما عن الآخر. قال كولين لنفسه إن

لديهما الكثير ليختصما حوله. "لقد واجهنا هذا المتفرق قبلًا، هل تذكرين أيّ طريقَيه سلكنا؟" قال كولين. لكن ماري حينها كانت قد اقتربت من مُلصَق، إنّه بلاغٌ طويل، وهي تقرؤه باهتمام. فرفع صوته "أيّ طريق؟"

بعبوس، أجرت ماري سبّابتها على السّطور العريضة الحروف، وعندما انتهت تنهّدت بانتصار. "يُريدون أن يُخصوا المغتصبين الذين ثبُتت إدانتهم!" تحرّك كولين متموضعًا في زاوية أفضل ليُطلّ في الطريق الأيمن، ثم قال "وأن تُقطَع أيدي السّارقين؟ انظري، أنا واثق أننا عبرنا قبلًا جوار نافورة الشُّرب تلك، في طريقنا إلى الحانة."

أدارت ماري ظهرها إلى المُلصَق. "لا. إنّ ذلك تكتيك، إنّها طريقة لجعل الناس يرون بجديّة أكبر أن الاغتصاب جريمة فاقعة."

خطى كولين مرّة أخرى بضع خطوات، ووقف بثبات فارجًا قدميه قليلًا مواجهًا الطريق اليُسرى. ثمّة نافورة شرب أخرى هناك. "هذا أسلوب،" قال بانفعال "يجعل الناس يرون النسويّة باستهتار".

كتّفت ماري يديها، وبعد أن لبثت قليلًا، سارت بهدوء في الطريق اليُمنى مستعيدةً وقْعها الهادئ الدّقيق. "يرى الناس الشّنقَ بجديّة أكبر،" قالت ماري "العين بالعين".

لم يكن كولين مرتاحًا وهو يراقبها تبتعد. "انتظري قليلًا، ماري!" ناداها كولين. "هل أنت واثقة من أنها الطريق الصّحيحة؟" أومأت له بالإيجاب دون أن تلتفت إليه. ثمّة خيال شخصٍ في البُعد، التقطته إنارة الشّارع لحظةً وحده وأضاءته، ثمّ تماهى والظّلمة، كان يتقدّم نحوهما. بعث ذلك في كولين الاطمئنان قليلًا، فلحق ماري حتى جاورها.

هذا الشارع أيضًا ناجح تجاريًّا، لكنّه يزدحم بالمتاجر المتخصّصة، متاجر البضاعة الواحدة، الحصريّة: ثمّة متجر يعرض لوحة مشهد طبيعيّ ذات إطار مذهّب، ألوانها كَدِرة ومتشقّقة؛ وآخر يعرض حذاءً يدويّ الصّناعة؛ وإلى الأمام قليلًا، ثمّة آخر يعرض آلة تصوير وحيدة العدسة، رُكّبَت على قاعدة مخمليّة. نافورة الشُّرب، خلاف أغلب نوافير المدينة، ليست جافّة. الحجر الدّاكن القائم الذي يشكّل حوض النافورة، عتبتها وإطارها، أبلته قرون من الاستخدام وشذّبته. قرّبت ماري رأسها من الصّنبور النحاسيّ الملوّث، وشربت. "الماء هنا،" قالت بين شربتين ملأتا فمها "له طعم السّمك". كان كولين يحدّق إلى الأمام، ينتظر خيال الشّخص أن يعاود الظهور تحت إنارة شارع آخر. لكن لا شيء هناك سوى حركة ارتداد بابٍ سريعة في البُعد، أو ربما قطّة. آخر ما تناولاه كان وجبة أسماك صغيرة تشاركاها قبل اثنتي عشرة ساعة. "هل تتذكرين أنّه يبيع شيئًا غير النقانق؟"

"شوكولاتة؟ مكسّرات؟"

وقْعُ سيرهما تسارع، وبات لخطاهما رجْعٌ صاخبٌ مُزعج يرتدّ عن الأرض الحجريّة، وقعٌ مُتّحدٌ كأنّه يعود لحذاءين فقط. "نحن في إحدى أشهر عواصم المأكولات في العالم،" قال كولين "ونسير مِيلَين كي نتناول النقانق!"

"نحن في إجازة،" قالت ماري تذكّره "لا تنسَ ذلك".

ضرب بكفّه الحُرّة جبهته وقال "بالطبع! بتّ أضيع كثيرًا في التفاصيل التافهة، مثل الجوع والعطش. نحن في إجازة!"

أسبلا أيديهما، وفيما يتابعان سيرهما، راح كولين يهمهم لنفسه. صار الشارع يضيق أكثر فأكثر، وأعطت المتاجر مساحاتها على الجانبين

لجدران داكنة عالية، تقطعُ تتابعها بعد كلّ مسافة فجواتٌ لمداخل أبواب، ونوافذ مربعة صغيرة وعالية تتصالب عليها قضبانٌ حديديّة.
"هذا هو مصنع الزجاج" قالت ماري بشيء من الارتياح "حاولنا أن ندخلهِ خلال يومنا الأوّل هنا". أبطآ قليلًا لكنهما لم يتوقفا.
قال كولين "لا بدّ أننا أتينا من الجهة الأخرى للمصنع، فلستُ أذكر أني كنت هنا قبلًا".
"لقد وقفنا في الطابور أمام أحد أبوابه وانتظرنا"
استدار كولين نحوها بتشكّك، وبدا منهكًا جدًّا "لم يحدث ذاك في أوّل يوم لنا هنا" قال بصوت عال. "الآن أنت مشوّشة تمامًا. إنّ رؤيتنا ذاكَ الطابور الطويل هو ما دفعنا للذهاب إلى الشاطئ، وهذا ما حدث في يومنا الثالث" توقّف كولين ليقول ذلك، غير أن ماري تابعت السّير. ثمّ خطى خطوات واسعة حتى جاورها.
"ربما كان يومنا الثالث" قالت ذلك وكأنها تحدّث نفسها، "لكن هنا تمامًا كُنّا" وأشارت إلى مدخل باب يبعُد عنهما بضع ياردات. ثمّ، وكأنه استجمع شجاعته أخيرًا، بزغ خيال شخص مربوع من الظلام إلى بركة من ضوء إنارة الشّارع، انتصبَ وقطع عليهما الطريق.
"والآن، انظُر ماذا فعلت بنا!" قال كولين بظُرف، فضحكت ماري.
ضحك الرّجل أيضًا ومدّ يده لهما "أنتما سائحان؟" سألهما بإنجليزية واثقة ودقيقة. ثمّ، مبتهجًا، أجاب نفسه "أجل، بالطبع أنتما كذلك".
وقفت ماري أمامه تمامًا وقالت "نحن نبحث عن مكان نستطيع أن نتناول فيه الطعام".
أثناء ذلك، كان كولين قد تجاوزهما "ليس علينا أن نبرّر أي شيء" قال بسُرعة لماري. وفي خضمّ حديثه، يدُ الرّجل الودودة أمسكت

ذراع كولين، وبالأخرى حاول أن يطال ذراع ماري، لكنها كتّفت يديها وابتسمت.
"إنّها ساعة متأخّرة فظيعة"، قال الرجل. "لا يوجد شيء في هذا الاتجاه. لكنّي أستطيع أن أدلّكما على مكانٍ في ذاك الاتّجاه، مكان جيّد جدًّا" وابتسم ابتسامة عريضة، مُشيرًا برأسه إلى الاتجاه الذي جاءا منه.
كان أقصر من كولين، لكن ذراعيه أطول بوضوح ومفتولة العضلات. كذلك كفّاه، مُشعرتا الظّهر. ارتدى قميصًا قصير الأكمام، ضيّقًا، نُسج بحرفيّة بقماش شبه شفّاف، محلول الأزرار حتى مستوى الخصر تقريبًا. تُحيط سلسلة عنقَه، تتدلّى منها شفرة حلاقة ذهبيّة زائفة تحُطّ مائلةً على فروته الثخينة من شعر الصّدر. يحمل آلة تصوير على كتفه. ثمّة رائحة سُكّريّة غثيثة، عطر حلاقة، تملأ الشارع الضيّق.
"انظر،" قال كولين محاولًا تحرير ذراعه دون أن يبدو فظًّا. "نعرف أنّ هناك مكانًا مناسبًا إلى الأمام قليلًا". رغم أن قبضة الرّجل كانت مرتخية، فإنها مُصرّة، مجرّد إصبع وإبهام تحيطان رسغَ كولين.
ملأ الرّجل رئتيه بالهواء، فبدا وكأنّه طالَ إنشًا أو اثنين. "كلّ المحلّات مُغلقة،" أعلن الرّجل، "حتى عربة النقانق". ثمّ قدّم نفسه لماري بغمزة قائلًا "اسمي روبرت"، فتصافحا، وجذبهما روبرت عودةً من حيث أتيا. "أرجوكما،" أصرّ عليهما. "أعرف مكانًا مناسبًا".
وبعد مقاومة عدّة خطوات، تمكّن كولين وماري من إيقاف روبرت، وانتصبا لصقَ بعضهما يتنفسان بعلوّ مُزعج.
تحدّثت ماري كأنّها تخاطب طفلًا "روبرت، اترك ذراعي!" فتركها فورًا

وانحنى لها قليلًا.
قال كولين "ومن الأفضل أن تترك ذراعي أيضًا".
لكن روبرت كان يشرح معتذرًا لماري، "أريد مساعدتكما. أستطيع أخذكما إلى مكانٍ جيّد حقًّا". فتابعا السّير. "لسنا في حاجة لأن نُجَرّ لتناول طعام جيّد" قالت ماري، فأومأ روبرت. وراح يجسّ جبهته ويقول "أنا... أنا..."
"انتظري لحظة..." قاطعه كولين.
"...أنا دائمًا متحمّس للتدرّب على اللغة الإنجليزية، حماسة كبيرة. كنت أتحدثها يومًا بطلاقة. من هذه الجهة، رجاءً". كانت ماري قاد باشرت السّير. روبرت وكولين تبعاها.
"ماري" ناداها كولين.
"الإنجليزية،" قال روبرت "لغة جميلة، محفوفة دومًا بسوء الفهم".
ابتسمت ماري مُشيحةً وجهها عنه. عادا وإيّاه أدراجهما حتى وصلا، مرّة أخرى، إلى المسكن الكبير في المفترق. حينها، أوقف كولين روبرت وحرّر ذراعه منه. "أعتذر،" قال روبرت. توقّفت ماري أيضًا، وراحت مرّة أخرى تُمعن النظر في الملصقات. تابع روبرت نظرتها فوجد أنها تنظر إلى رسمة بألوان البخّاخ، عبارة عن قبضة في وسط شِعار يستخدمه علماء الطّيور عادة، لتدُلّ على المخلوقات الأنثويّة. ومرّة أخرى، بنبرته الاعتذارية، افترضَ أنه مُلام ومسؤول شخصيًّا عن كل ما قد يقرأه السّائحَين. "هؤلاء نسوة لم يستطعن العثور على رجال لهن، ولهذا يُردن تدمير كل ما هو طيّب وهانئ في علاقة الرّجل مع المرأة" قال روبرت، ثم أضاف بكلّ ثقة "إنّ قُبحهن لا يُحتمَل" بينما تنظر إليه ماري وكأنها تشاهد برنامجًا متلفزًا.

"هاكِ" قال كولين، "إليكِ الخُصوم!"
ابتسمَت بعذوبة لكليهما. "لنعثر على الطعام الطيّب" قالت في اللحظة التي وجد فيها روبرت مُلصَقًا آخر وبدا على وشك أن يقول المزيد.
سلَكوا المفرق الأيسر وساروا فيه بضع دقائق، وفيما اشتدّ روبرت صخبًا في محاولاته فتحَ نقاش ما، قوبل بصمت مطبق؛ في حالة ماري كان صامتًا مستغرقًا في الذّات – باتت تسير مكتّفةً ذراعيها من جديد – أمّا كولين فكان صمتًا أقرب إلى الضّغينة الخافتة، لقد أبقى على مسافة واضحة تُبعده عن روبرت. دخلوا زقاقًا، فواجهتهم بضع عتبات مثلّمة نزولًا، أفضت بهم إلى ساحة صغيرة جدًّا. وعلى بُعد ثلاثين قدمًا، حيث تبلغ نهايتها، ثمّة ستّة معابر صغيرة للمُشاة.
"هناك،" قال روبرت "أُقيمُ هناك. لكن الوقت متأخّر جدًّا على استضافتكما، لا بدّ أن زوجتي نائمة في سريرها الآن".
سلكوا منعطفات أخرى يمينًا وشِمالًا، عابرين بين مبانٍ متهالكة بلغ ارتفاعها يومًا خمسة طوابق، متجاوزين سلاسل دكاكين بقالة مغلقة وقد تكوّمت خارجها صناديق خشبيّة مضلّعة تحمل فاكهةً وخضروات. ظهر صاحبُ متجر يرتدي مئزرًا، ويدفع عربةً مُلئت حقائب. رفع صوته مناديًا روبرت، فضحك الأخير هازًّا رأسه، وقد رفع له يده. وصلوا مدخلًا تبرُقُ إضاءته وتشعّ، فأزاح روبرت جانبًا ستارة خيوط مصفرّة متدليّة كي تجتاز ماري إلى الداخل، وقد أبقى كفّه الأخرى تنام على كتف كولين بينما ينزلون الدرج إلى حانةٍ ضيّقة تغصّ بالزبائن.
في الحانة عدد من الشُبّان، يرتدون أردية روبرت نفسها، يجلسون على مقاعد عالية عند طاولة المشرَب، أمّا بقيّتهم فيتحلّقون وقوفًا

متّخذين نمطًا مشتركًا – يُسندون ثقلهم إلى قدمٍ واحدة – حول دولاب أسطوانات موسيقى ضخم ذي أقواس باذخة وزخارف كروميّة لامعة. ينبعث من آخر الدولاب ضوء أزرق ينتشر على وجوه الشبّان المتحلّقين حوله، ما جعل نظراتهم تترك في النفس شعورًا كريهًا. للجميع شُغلٌ مع السجائر، فإن لم ترَ الواحد منهم يدخّنها، فهو يربّتها في المطفئة كأنّه يطعن بها طعنات حاسمة سريعة، أو أنه يُميل رأسه إلى الأمام كي يُشعلها. ولأنهم جميعًا يلبسون الضيّق من الملابس التي دون جيوب، فإنّهم يرفعون السيجارة بيد، وبالأخرى يحملون علبة الدخان والقداحة. الأغنية التي كانوا جميعًا يُنصتون إليها – فلم يكن يتحدّث أحد منهم – ضاجّة بأصوات كثيرة وصَفير عاطفي، مصحوبة بعزف أوركسترا كاملة، ولصوت المغنّي نبرة أسى حميمة يرُدّ بها على الجوقة التهكّمية التي ترتفع في أوقات معلومة "ها ها ها"، حينها فقط يرفع كثير من الشبّان سجائرهم. ومتجنّبين النّظَر بعضهم إلى بعض، يشتركون في العبوس والتنهّد، لكن كلٌّ على حدة، ولنفسه فقط.

"حمدًا لله أنني لستُ رجلًا!" قالت ماري، محاولةً أن تأخذ ذراع كولين.

أجلسهما روبرت إلى طاولة ثم ذهب إلى المشرَب. دسّ كولين كفّيه في جيبَيه، أسند ظهره إلى كرسيّه وراح يحدّق في دولاب الموسيقى. "أوه، بالله عليك!" قالت ماري وهي تهمز يده. "إنّها مجرّد نكتة!"

انتهت الأغنية بنغمة انتصارٍ سيمفونيّةٍ عالية، إنّها ذروة الأغنية، ثم ابتدأت مباشرة من جديد. خلف المشرَب، انتثر زجاج على الأرض، بينما انتشر في الحانة تصفيق خافت لحظات.

عاد روبرت أخيرًا حاملًا قنّينة نبيذ أحمر، لا تحمل أيّ شعار يُشير إلى المصدر، وثلاثة كؤوس، ورغيفَين فرنسيّين، أحدهما أصغر من

الأخرى. "اليوم،" قال بصوت جهوريّ فخور عند الطاولة "الطّاهي مريض". ثمّ، غامزًا لكولين، جلس وسكب النبيذ في الكؤوس.

شرع روبرت في سؤالهما، وقد كانا في البدء يستثقلان الإجابة ويتمنّعان. أخبراه عن اسمَيهما، وأنّهما ليسا متزوّجين، ولا يعيشان معًا، على الأقل ليس الآن. أفصحت ماري عن عمرَي طفلَيها وجنسَيهما. أفصحا أيضًا عن مهنتَيهما. بعدها، رغم غياب الطعام، وبمساعدة النبيذ، راحا يختبران شعورًا ممتعًا يخصّ السيّاح وحده؛ وهو أنهما عثرا أخيرًا على مكان خال من السيّاح، إنّه اكتشاف، مكان حقيقيّ! وهكذا استرخيا، وتكيّفا مع الضجّة ودخان السجائر. وهما أيضًا طرحا أسئلة جادّة ومقصودة على روبرت، تلك التي يطرحها السيّاح عادة، شاعرين بالامتنان أنهما أخيرًا يتبادلان الحديث مع مواطن محلّي جدير بالثّقة. خلال أقلّ من عشرين دقيقة، أفرغوا القنّينة. أخبرهم روبرت أنّه يهتمّ بعالم الأعمال، وأنه نشأ في لندن، وأن زوجته كنديّة. وعندما سألته ماري كيف التقى زوجته، أخبرها باستحالة الإجابة المباشرة عن ذلك دون أن يمهّد لشروحات حول أخواته وأمّه، الذين لا يمكن الدخول إلى عوالمهم مباشرة أيضًا دون مقدّمة عن أبيه أوّلًا. كان واضحًا لهما أنّه يمهّد الطُرُق كي يروي لهما قصّة حياته. جوقة "ها ها ها" في أوجها مرّة أخرى، وجوار دولاب الموسيقى ثمّة طاولة يجلس إليها رجل أجعد الشعر، يدفن وجهه في راحتَيه. صاح روبرت عبر الحانة أن يجلبوا له قنّينة نبيذ أخرى، في حين اقتسم كولين أحد الرّغيفين الفرنسيّين مع ماري.

- 3 -

انتهت الأغنية، وراحت الأحاديث في البدء تطفو برفقٍ وهدوء في أرجاء الحانة. همهماتٌ لطيفة، وهسهسة حروفٍ ساكنة ومتحركة بلُغة أجنبيّة. أُطلقَت ملاحظات قصيرة، أُجيبَ عليها بكلمة واحدة أو بصوتٍ يؤكّد الموافقة. ثمّ ينقطع ذاك كلّه وتختفي الأصوات بعشوائيّة، أو من جهةٍ دون أخرى، فتنطلق الملاحظات من جديد بنبرةٍ أعلى، ويُجاب عليها بما هو أعلى منها. وخلال أقل من دقيقة، احتدمت بعض النقاشات وباتت في أوجها، فقد طُرحت بعض المواضيع ذات الأهمية فتحلّق حول المتناقشين بعض المؤيّدين والمعارضين. لو أن أسطوانةً في دولاب الموسيقى أُديرَت الآن، لما وجدت أحدًا يُنصت إليها.

بدا روبرت، وهو يُحيط كأسه بكلتا كفّيه على الطاولة ويحملق فيه، كأنّه يحبس أنفاسه، ما جعل كولين وماري عند ملاحظتهما ذلك ومراقبته عن كثب يتنفّسان بصعوبة. لقد أمسى الآن رجُلًا مُسنًّا، لا كالّذي رأياه في الشارع قبل قليل. إنّ الأضواء السّاقطة على وجهه

بانحرافات متباينة اختارت أن تُبرز بعض قسماته الهندسيّة فارتسمت مثل شبكة على وجهه. ثمّة خطّان، كل واحد منهما يبدأ من منخر ويمتد حتى زاوية الفم نزولًا، ما رسمَ مثلّثًا شبه مكتمل. تعبر جبهته خطوط مستقيمة، تجاعيد، وبعدها بإنشٍ واحد نزولًا، عند ملتقى الحاجبين، خطٌّ واحد تشكّله طيّة جلدٍ عميقة. أومأ لنفسه برفق، ثمّ ترك كتفيه تهويان مطلقًا زفرة. مال كولين وماري إلى الأمام كي يتمكنّا من سماع كلمات قصّته الافتتاحيّة.

"سلخ أبي سنوات حياته كلّها في السّلك الدبلوماسيّ. قضينا أعوامًا طويلة في لندن، نايتسبريدج. لكنّي كنت ولدًا كسولًا" – ابتسم روبرت – "وإلى الآن، لم أتقن الإنجليزيّة كما يجب". ثم توقّف عن الكلام قليلًا، وكأنه ينتظر أحدًا أن يُعارض ما قاله عن نفسه. "كان أبي ذا شأن عظيم. أنا ابنه الوحيد الصّغير. إذا أراد أن يجلس، كان يجلس هكذا" استعاد روبرت استقامة ظهره وانشداد جسده، مُريحًا ذراعيه على ركبتيه. "وطول حياته، لم يتخلّ عن شاربه، يا لثخانته" وبإبهامه وسبّابته، قاس روبرت إنشًا تحت أنفه. "وعندما تفضّضت شُعيراته راح يسوّدها بفُرشاة، مثل فُرشاة مسْكَرا النساء"

"خشِيَه الجميع. أمّي وأخواتي الأربعة. حتى القنصل كان يخاف أبي. عندما يعبس، ليس لأحد أن ينبس بينت شفَة. على طاولة الطعام، ليس لك أن تتكلّم إلا إذا تحدّث إليك أبي أوّلًا". راح روبرت يُعلي صوته فوق الضّجيج الذي يُحيطهم. "كلّ مساء، حتى لو كان علينا التحضير لحفل استقبال مثلًا، وبات على أمي أن تسابق الوقت لتُمسي في كامل زينتها، فإن علينا الجلوس قبالة أبي مستقيمي الظّهور ليقرأ علينا ما طاب له"

"ينهض عن فراشه في السّادسة صباحًا، كلّ يوم، ويتّجه إلى الحمّام ليحلق ذقنه. لا يُسمح لأحد النهوض من فراشه قبل أن ينتهي من ذلك. في صِغَري، كنت ثاني الناهضين من أَسِرّتهم، أفعل ذلك سريعًا، راكضًا إلى الحمّام كي أشتمّ رائحته. أعتذر منكم، رائحته حينها تكون كريهة، لكنّها مغلّفة بعطر رغوة الحلاقة وعطرها. مُذّاك، ورائحة الكولونيا تعني لي رائحة أبي".

"كنت المفضّل عنده، كنت شغفه. أذكُرُ – ربما حدث ذلك أكثر من مرّة – أنّ أختيّ الكُبرَيَيْن كانتا في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العُمر على التوالي، إيفا وماريا، وكانتا على طاولة الطعام يستعطفانه أمرًا. أرجوك، بابا، أرجوك! كان جوابه على كلّ ما سألتاه هو الرّفض. ليس لهما الذّهاب مع الرحلة المدرسية لأنهما ستختلطان مع الصّبيان. وليس مسموحًا لهما لبس غير الجوارب البيضاء. ولا يذهبان إلى المسرح عصرًا إلّا رفقةَ ماما. ويُمنع على صديقتهما المبيت في المنزل معهما لأنّها تشكّل لهما مثالًا سيّئًا، فهي لا تذهب إلى الكنيسة. ثمّ فجأة، نهض أبي ووقف خلف مقعدي حيث أجلس دومًا جوار أمي، ضاحكًا بصخب، ثُمّ رفع المنديل عن حِجري ليدُسّ طرفه في فُتحة ياقتي كي ينسدل على قميصي. "انظُرا" قال. "هذا هو رأس العائلة القادم. لا بدّ أن تُظهرا الجانب الجيّد منكما أمام روبرت". ثمّ ترك لي أمر إدارة النقاش وإصدار القرار الأخير، بينما كفّه ترتاح هنا، ضامًّا رقبتي بين أصابعه. قال أبي "روبرت، هل للفتاتين أن ترتديا جوارب حريريّة مثل الماما؟" وأنا، ابنُ العاشرة حينئذ، أُجبته بصوتٍ مرتفع "لا بابا". "هل تسمح لهما بالذّهاب إلى المسرح دون ماما؟". "بالطّبع لا! بابا". "روبرت، هل يمكنهما دعوة صديقتهما للمبيت عندنا؟". "أبدًا،

بابا!" أُجبتُ بفخر، دون أن أعلم أنّه يستغلّني"
"ربما حدث ذاك المشهد مرّة واحدة وحسب. لكنّ احتمال حدوثه بالنسبة لي كان كامنًا في كلّ ليلة من ليالي طفولتي. أقول، بعدها، سار أبي عائدًا إلى كرسيّه عند رأس طاولة الطعام، مدّعيًا أمارات الحُزن. "آسف يا إيفا، وماريا، كنت على وشك تغيير رأيي، لكن روبرت قال إنّ ما سألتماه لا يمكن أن يحدث". ثم ضحك، وكنت أضحك أيضًا. لقد صدّقتُ كلّ ما حدث، كلّ كلمة قيلَت. كنت بقيتُ أضحك حتى وضعت أمي يدها على كتفي وقالت "كفى الآن، روبرت، هش!"
"هل كرهتني أخواتي؟ أجل، على الأقل تيقّنتُ ذلك مرّة واحدة. كُنا في عطلة نهاية أسبوعٍ ما، والمنزل شاغر خلال النهار إلا منّي وأختَيّ إيّاهما، إيفا وماريا. ذهبنا إلى غرفة نوم والدينا. أجلساني على السرّير، وخفّتا إلى خزانة زينة أمي جالبتَين كل شيء. أوّلًا، وضعتا أصباغ الأظافر ولوّحا بأصابعهما في الهواء كي يجفّ اللون. وضعتا أيضًا مساحيق ومراهم التجميل على وجهيهما، ورسما بأحمر الشّفاه، ونتفتا بعض الشّعيرات من حواجبهما، وبالفُرشاة خطّتا المَسْكَرا على رموشهما. طلبتا مني إغماض عينيّ بينما تخلعان جواربهما وترتديان بدلًا منها جوارب والدتي الحريرية. ثم انتصبتا، امرأتين جميلتين تحدّقان في بعضهما. ولساعةٍ تقريبًا، راحتا تتجوّلان في المنزل، تنظران جانبيًّا نحو المرايا وزُجاج النوافذ، وتدوران مرّة تلو أخرى في غرفة الرّسم، ومن حين لآخر تجلس إحداهما بحذر على ذراع كرسيّ ما لتُصلح شعرها. تبعتهما أينما ذهبتا، أَنظُر إليهما طول الوقت، أَنظُر فقط. "ألسنا جميلتين، روبرت؟" كانتا تسألاني. تعرفان أنني مصدوم، وأنهما لا تبدوان كأختيّ أبدًا، بل نجمتَي أفلام أمريكية. كانتا مستلذّتين

بنفسيهما. لقد ضحكتا وقبّلتا بعضهما، فهما الآن امرأتان حقيقيّتان"
"لاحقًا، قُرب انتهاء النهار، ذهبتا إلى دورة المياه وغسلتا عنهما كل شيء. وفي غرفة النوم أعادتا القناني والعُلَب كلّها إلى أماكنها، وفتحتا النوافذ كي لا تشتمّ أمي أثرًا لعطورها. أعادتا طويَ الجوارب الحريرية كما شاهدتا أمي تطويها تمامًا. بعدها، أطبقتا النوافذ ونزلنا جميعًا إلى الطابق الأرضي كي ننتظر عودة أمي إلى المنزل. كنت مستثارًا طول الوقت. لكن فجأة، تلكما المرأتان الجميلتان، عادتا لتكونا أختيّ، فتاتَي المدرسة الطويلتين".
"ثم حلّ وقت العشاء. ما زلت مُثارًا وقتها. تصرّفَت أختاي كأن شيئًا لم يكن. كنتُ واعيًا أن أبي استمرّ يحدّق فيّ. رفعتُ عينيّ لحظةً فالتقت أعيننا، واستطاع حينها أن ينفذ بنظرته إلى أعماقي. وببطء شديد، وضع شوكته وسكّينه على الطاولة. مضغ وابتلع كل ما كان في فمه، ثم سألني "أخبرني روبرت، كيف قضيت وقتك هذا النهار؟". كنت أؤمن أنّه عليمٌ وعارفٌ بكُلّ شيء، مثل الله. أنّه يختبرني كي يرى إن كنتُ أستحقّ مكانتي ربَّ أسرةٍ مستقبليّ، فأقول الحقيقة. لذا، لم أر أي جدوى من الكذب. فأطلعته على كل شيء: أحمر الشّفاه؛ والمساحيق؛ ومراهم التجميل والعطور؛ والجوارب الحريرية من خزانة أمي؛ ثم قلت له كأني أحاول أن أدفعه ليعذُرهما على كل شيء، كيف أنهما بترتيب وحذر أعادتا كل شيء إلى مكانه. وحتى أنني ذكرتُ أمر النوافذ. في البدء ضحكت أختاي وأنكرتا ما قلته جملةً وتفصيلًا. لكنهما كانتا كلّما تقدّمت في ذكر التفاصيل، التزمتا الصّمت أكثر. عندما انتهيت، قال أبي ببساطة "شكرًا لك، روبرت" وتابع تناول الطعام. لم يتحدث أحد طوال العشاء. لم أجرؤ على النظر إلى أختَيّ"

"بعد العشاء، وقبل حلول وقت النوم، دعاني أبي للمثول في غرفة مكتبه. هذا مكان لا يسمح لأحد دخوله أبدًا، فهنا تكمن الأسرار الحكومية كلّها. شغلَ مكتبه أوسع غرفة في المنزل، فقد اعتاد والدي استقبال بعض الدبلوماسيين فيها أحيانًا. النوافذ وستائر المخمل الأرجوانية الغامقة عالية، ترتفع إلى السّقف المزيّن بورقة نبات ذهبيّة ورسوم مدوّرة. ثمّة كتب في كل مكان، خلف مزاليق أرفُفٍ مزجّجة، بينما الأرضيّة مغطّاة بسجّادات ثخينة جُلبت من كل أصقاع الأرض، حتى أن بعضها معلّق على الجدران. كان أبي يهوى جمعَ البُسُط".

"وجدته جالسًا خلف طاولته الهائلة المغطّاة بالأوراق، بينما أختاي تقفان أمامه. أمرني بالجلوس في الجهة المقابلة من الغرفة، على كرسيّ رفيع الظّهر، جِلديّ، عادَ يومًا ما إلى جدّي الذي كان دبلوماسيًّا أيضًا. لم يتكلم أحد. كان المشهد مثل فيلم صامت. أخرج أبي حزامًا جلديًّا من دُرج طاولته وجلدَ أختيّ – ثلاث جلدات على مؤخّرة كلّ واحدة منهما، فيما لم تصدر لا إيفا ولا ماريا أيّ صوت. بغتة، وجدت نفسي خارج المكتب. الباب مغلق. ذهبت أختاي إلى غرفتيهن للبكاء، فصعدتُ الدرج إلى مخدعي، وهذه هي النهاية. لم يذكر أبي الأمر بعدها أبدًا"

"كرهتني أختاي أشدّ الكره. فكان لا بدّ أن ينتقما. أعتقد أنهما لم يتحدثا عن أيّ أمر آخر طول أسابيع. وما حدث حينها حدث عندما كان البيت شاغرًا أيضًا، لا والدَان ولا طاهية، بعد شهر على جلد أختَيّ، أو ربما أطول من ذلك. يجب أن أقول لكما، أوّلًا، إنّه رغم كوني المفضّل بين الأبناء، فإن هناك الكثير ممّا يُمنع عليّ القيام به. على الأخص، يُحضَر عليّ تناول الحلويات والمشروبات السكريّة،

ما عدا الفاكهة. فذاك يضرَ المعدة. لكن الأهم من ذلك، بالنسبة للشوكولاتة خصوصًا، هو أنها لا تناسب الفتيان. إنها تجعل الواحد منهم ذا شخصيّة ضعيفة، مثل الفتيات. قد يكمن شيء من الحقيقة في ذلك، للبحوث العِلميّة وحدها كلمة الفصل. وأيضًا، كانت صحّة أسناني تهمّ أبي، فقد أرادني أن أتمتع بأسنان كأسنانه: تامّة. في الخارج، كنت أتناول حلويات الفتيان الآخرين، لكن في المنزل لا شيء"

"إذًا، في ذاك اليوم، جاءتني آليس، أختي الصُّغرى، إلى الحديقة وقالت "روبرت، روبرت، تعال إلى المطبخ على عجل. ثمّة طبقٌ خاصّ! إيفا وماريا أعدّتا طبقًا مذهلًا لك!" في البدء لم أذهب، فقد راودني شكٌّ أن هناك خدعة ما. لكن آليس كرّرت وأصرّت "تعال بسرعة، روبرت!" ولهذا ذهبتُ أخيرًا، ووجدت على طاولة المطبخ قنّينتَي عصير ليمون كبيرتين، وكعكة محلّاة، وإصبعَي شوكولاتة، وعلبة ممتلئة بقطع حلوى مارشملو. قالت ماريا "هذا كلّه لك!" وفورًا ارتبتُ من الوضع، فسألت "لماذا؟" فقالت إيفا "نريدك أن تُحسن معاملتنا في الأيام القادمة. فعندما تأكل هذا كله ستتذكر لاحقًا كم كنّا لطيفتَين معك". بدا حديثها منطقيًّا، وكان للطعام مظهرٌ شهيّ. ولذا جلستُ، ومددتُ يدي إلى عصير الليمون. لكن ماريا وضعت كفّها على كفّي وقبضتها قائلة "أوّلًا، عليك أن تتناول الدواء". "لماذا؟". "لأنك تعرف أن الحلويات تضرُّ المعدة. فإذا مرضت، سيعرف بابا ما فعلت، وسنقع جميعًا في مشكلة. هذا الدواء سيجعل الأمور كلها على خير ما يرام". ولهذا فتحتُ فمي وسكبَت ماريا فيه أربع ملاعق ممتلئة بزيت ما. كان طعمه مُرًّا، لكن لم ألقِ بالًا لذلك، فقد انقضضت فورًا على إصبعَي الشوكولاتة والكعكة المحلّاة وشربت عصير الليمون"

"تحلّقت أخواتي حول الطاولة يشاهدنني. "هل هي طيّبة؟" سألنني، لكني كنت آكل بسُرعة ما صعّب عليّ الكلام. ظننتهن يتودّدن إليّ لأنهن يعرفن أني يومًا ما سأكون ربّ الأُسرة وأرِث هذا البيت. وبعد أن أنهيت شُرب قنّينة عصير الليمون الأولى، رفعت لي إيفا القنينة الأخرى وقالت "أظنّه لن يستطيع شُرب هذه أيضًا، سوف أضعها بعيدًا". فقالت ماريا "أجل، خذيها بعيدًا. إنّ الرّجُل فقط هو من يستطيع شرب قنّينَتي عصير ليمون في آن!" فخطفتُ القنّينة من يدها وقلت "بالتأكيد أستطيع شربها!" فقالت الفتيات بصوت واحد "روبرت! هذا مستحيل!" وبالطبع تجرّعتها كلّها، وكنت قد قضيت أيضًا على إصبعَي الشوكولاتة وعُلبة حلوى مارشملو، والكعكة المحلّاة. فصفّقت أخواتي الأربعة قائلات "برافو، روبرت!"

"حاولتُ النهوض، لكن راح المطبخ يدور بي ويلتفّ حولي، وشعرت بحاجةٍ مُلحّة لاستخدام المرحاض فورًا. لكن فجأة، رمتني ماريا وإيفا على الأرض وثبّتْنَني إليها. كنت أكثر وهنًا من مصارعتهن، فهما تفوقانني سنًّا وقوّة. كانتا قد أعدّتا حبلًا طويلًا لربط يديّ خلف ظهري، وقد فعلتا. وطول الوقت، كانت أختاي الصغيرتان، آليس وليزا، تقفزان وتصيحان "برافو روبرت!" ثمّ أنهضتاني على قدميّ ودفعتاني خارج المطبخ، عبر الرّدهة، ورواق الاستقبال الواسع، ثمّ إلى مكتب والدي. رمتاني في الداخل وكانتا قد جذبتا المفتاح من القفل، ثم صفعتا الباب وأقفلتاه. "باي باي روبرت! الآن أنت البابا الكبير في مكتبه!" قالتا عبر فُتحة القفل".

"وقفتُ وسط الغرفة الواسعة، تحت الثريّا الضخمة، وفي البدء لم أميّز لماذا أقف هناك في المكتب. ثمّ فهمت. صارعتُ لأحلّ عقدة

الحبل، لكنّه كان موثقًا بإحكام. صُحتُ عبر الباب وركلته بقدميّ، وقرعته برأسي، فلم يعُد لي من البيت سوى صمت مطبق. ركضتُ من زاوية في الغرفة إلى زاوية مقابلة محاولًا العثور على مخرج، وثمّة في كل مكان سجادات وبُسُط ثمينة. وأخيرًا، لم أستطع الاحتمال أكثر. سال منّي عصير الليمون. ولم يطُل الأمر حتى أخرجتُ الشوكولاتة والكعكة المحلّاة، سائلتَين. كنت أرتدي بنطالًا قصيرًا، كأني مثالٌ لطفل مدرسة إنجليزي. وبدلًا من الوقوف في مكان واحد مُفسدًا سجادة واحدة فقط، رحت أركض ما وسعني المكان صارخًا باكيًا، كأنّ أبي يطاردني بالفعل"

"أُديرِ مفتاحٌ في قفل الباب، وفُتح ، فدخلت ماريا وإيفا. "بووه!" صاحتا. "أسرع، أسرع، بابا قادم!" حلّتا الحبل، وأعادتا المفتاح إلى مكانه في قُفل الباب من الداخل، ثم ركضتا بعيدًا ضاحكتَين مثل امرأتين مجنونتين. سمعتُ مُحرّك سيّارة أبي بينما تقترب من مدخل البيت"

"في البدء لم أستطع الحركة. ثمّ أخرجتُ من جيبي منديلًا وركضتُ إلى الجدران محاولًا تنظيفها – أجل، ثمّة منها على الجدران، وحتى على مكتبه – ثمّ حاولتُ تنظيف السجّادة الفارسيّة تحت قدميّ. ثمّ لاحظتُ ساقيّ، كانتا سوداوين تقريبًا. لم يعُد نافعًا استخدام المنديل، فهو صغير جدًّا. هرعتُ إلى طاولة المكتب وأخذتُ بعض الأوراق، وهكذا وجدني والدي، أنظّف ركبتيّ بأوراق الحكومة الرسميّة، وتمتدّ خلفي أرضيّة غرفة مكتبه مثل زريبة. تقدّمتُ خطوتين نحوه، ثمّ انهرتُ على ركبتيّ، وتقيّأت عند حذاءه. وبقيتُ مريضًا فترة طويلة. عندما انتهيت، كان ما يزال في مكانه عند باب المكتب، لم يتحرّك

قيد أنملة، حاملًا حقيبته الرسميّة. لم يحمل وجهه أيّ تعبير. نظر إلى حيث تقيّأت وسأل "روبرت، هل كنت تأكل الشوكولاتة؟" فقلت "أجل بابا، لكن..." وكان ذلك كافيًا بالنسبة له. لاحقًا، جاءت أمي لتراني في غرفة نومي، وفي الصباح جاءني طبيبٌ نفسيّ، وقال إني تعرّضت إلى صدمة نفسيّة. لكن بالنسبة لأبي، كان يكفيه سببًا أنّي تناولتُ الشوكولاتة. ضربني ثلاثة ليال، ولم يحدّثني بلُطف أشهرًا طويلة. ولسنوات أطول، أوه ما أطولها، حُرّم عليّ دخول المكتب، ليس قبل أن دخلتُ تلك المرّة مع زوجتي المستقبليّة. وإلى اليوم، لا أتناول الشوكولاتة، ولم أسامح أخواتي"

"خلال فترة عقابي، أمي هي الشخص الوحيد الذي كان يحادثني. حرصت ألّا يجور أبي في ضربي، وألّا يتجاوز ثلاثة ليال. أمّي طويلة، فاتنة الجمال، تلبس البياض معظم الوقت: أقمصة بيضاء، وأوشحة بيضاء، وفساتين حريرية بيضاء في حفلات الاستقبال الدبلوماسية. لا أذكرها بوضوح سوى في بياضها. كانت تتحدّث الإنجليزية برويّة، لكنْ محضَها الجميع بالمديح لأناقة لغتها ودقّتها".

"في طفولتي، رأيت من الكوابيس ما فاق عمري، كوابيس مُرعبة. سِرتُ أيضًا أثناء نومي. تخضّني أحلامي لأستفيق من النوم، وغالبًا ما أجلس بغتةً مناديًا "ماما" مثل أيّ طفل إنجليزي. وتكون كأنها تجلس مستيقظة تنتظر ندائي، لأنني أسمع بشكلٍ لحظيّ، عبر الرّدهة، منبثقًا من نهاياتها حيث غرفة والديّ، صرير فراشهما، وطقّة إشعال الضوء، وفرقعة عظمة ساقها الحافية. ودائمًا، إذا دخلت غرفتي وسألتني "ما الأمر، روبرت؟" أقول "أريد كأسَ ماء". لم أقل قط "رأيت كابوسًا مُرعبًا" أو "أنا خائف". دائمًا، تجلب لي الماء من صنبور

المغسلة، تناولنيه، وتنظر إليّ أشربه. ثم تقبّل رأسي، هنا، فأنام فورًا. مرّت أوقات يحدث فيها ذلك كلّ ليلة، طول أشهر. رغم ذلك، لم تُرِد تركَ كوب ماء جوار سريري بينما أنام. عرفَت أني أحتاج إلى عُذرٍ أناديها به في منتصف الليل. الشّروحات لم تكن ضرورية. كنّا قريبَين من بعضنا. حتى بعد زواجي، وقبل وفاتها، كنت آخذ إليها قمصاني للغسيل كلّ أسبوع"

"كلّما غاب أبي ليلًا من المنزل، نمتُ في فراشها، حتى بلغتُ العاشرة من عمري. ثم انتهى ذلك تلقاء نفسه. دُعيَت زوجة السّفير الكنديّ لاحتساء الشاي في أحد الأيام. جرت التحضيرات طول اليوم. حرصَت أمّي أن أُتقن وأخواتي حمل كوب الشّاي وصحنه. أنيطَت بي مهمّة الدّوران على الضيوف بصحن الكعك والسندوتشات الصّغيرة منزوعة الحواف. أُرسلتُ إلى الحلاق، وأُلبستُ عُقدة عُنُقٍ حمراء، وهي أشدّ ما أكره من بين كل شيء. زَوجة السّفير ذات شعر أزرق، وهو أمرٌ لم يسبق لي رؤيته قط، وقد جلبَت معها ابنتها، كارولين، ذات الاثني عشر عامًا. تذكّرتُ لاحقًا أوامر أبي، أنّ على الأسرتين أن تقتربا من بعضهما وتتصادقا لتحقيق منافع دبلوماسيّة وماليّة ما. جلستُ وأخواتي هادئين، مُنصتين إلى المرأتين تتحدثان. عندما تسأل المرأة الكندية أحدنا سؤالًا، فإنه يستقيم في جلسته، ويُجيبها بأدبّ جم. أطفال اليوم لا يُلقّنون مثل هذه الأمور. ثم رافقَت أمي زوجة السّفير عبر المنزل لتُريها مسكننا، ثم الحديقة، فتُركنا نحن الأطفال وحدنا. أخواتي الأربعة ارتدين فساتينَ مخصّصة للمناسبات، وكُنّ يجلسن سويًّا على الأريكة الأكبر، ملتصقات بعضهن ببعض فبدينَ كأنّهن شخص واحد: عُقدة شرائط الشّعر نفسها، وعُقَد رباط الأحذية

بالمثل، وحتى تسريحة الشّعر. عندما تجتمع أخواتي مع بعضهن، يغدون مخيفات. كانت كارولين تقتعد كرسيًّا خشبيًّا مذرّعًا، بينما جلستُ على آخر. لعدّة دقائق لم يتحدث منّا أحد".

"لكارولين عينان زرقاوان، ووجه ملموم مثل القرَدة. النمش يغطّي أنفها، وفي ذاك النهار جمعت شعرها كلّه خلف ظهرها فبات شبيهًا بذَيل حصان طويل. لم يتحدث أحد، لكن تناهت إلينا من الأريكة الكبيرة همسات وضحك، ومن زاوية عيني استطعتُ رؤية إحداهن تندُس بكوعها أخرى. وفوق رأسنا نستطيع سماع صوتَي أمّنا ووالدة كارولين بينما ينفذان من غرفة إلى أخرى. وفجأة قالت إيفا "آنسة كارولين، هل تنامين مع أمّك؟" فأجابت "لا. ماذا عنك؟" فقالت إيفا "لا، لكن روبرت يفعل".

"غرقتُ في حُمرة الحياء عميقًا، عميقًا، وكنتُ على أهبة الاستعداد للركض هربًا خارج الغرفة. غير أن كارولين التفتت إليّ مبتسمة وقالت "أعتقد أن ذلك لطيف بشكلٍ لا يصدّق!" ومنذئذ، وقعتُ في حُبّها، ولم أعد أنام في فراش أمي. بعدها بست سنوات، قابلت كارولين مرّة أخرى. وبعدها بسنتين، تزوّجنا".

الحانة من حولهم باتت تتخفّف من روّادها. أُشعلَت أضواء السّقف التي كانت مطفأة، وثمّة من يمسح الأرضية. داخ كولين من السُّكر في الجزء الأخير من القصّة، فمال إلى الأمام ونام، وَسّد رأسه إلى كفّه. رفع روبرت قناني النبيذ الفارغة عن طاولتهم وذهب بها إلى المشرَب، وبدا كأنّه يُعطي تعليماتٍ ما. عاملٌ آخر، اقترب من الطاولة وراح يُفرغ المطفأة في دَلو، ومسح وجه الطاولة.

حين عاد روبرت قالت له ماري "لم تخبرنا كثيرًا عن زوجتك".

وضع في كفّها عُلبة ثقاب طُبع عليها اسم الحانة وعنوانها "أنا هنا كل ليلة تقريبًا" ثم أطبق أصابعها على العُلبة واعتصر كفّها بلُطف. وبينما يقف روبرت جوار كرسيّ كولين، مدّ يده وعبث بشعره. ثمّ رأته وهو ينتظر كولين إلى أن رفع رأسه وراح يتثاءب دقيقة أو دقيقتين، بعدها أنهضه ووجّهه سائرًا نحو الدّرَج. كانوا آخر من غادر.

- 4 -

الطريق، من جهة، يتناهى إلى الظلام، ومن الجهة الأخرى تنتشر فيه أنوار رماديّة مُزرقّة، أضاءت سلسلة بيوت واطئة متدرّجة نزولًا كأنها قِطَع قُصّت من أحجار صوّان وصُفّت مُتقاربة هناك في العتمة حيث ينعطف الشارع. على بُعد مئات الأقدام صعودًا، ثمّة إصبع واهن من الغيم يُشير إلى المنعطف، ينتهي برأس مُحمرّ. هبّ نسيم مالح بارد عبر الشارع، فَرَدَ قطعة سلوفان كانت عند العتبة التي يقتعدها كولين وماري. ومن نافذة مفتوحة على مصراعيها تمامًا فوق رأسيهما، انبثق شَخيرٌ مكتوم وصرير نوابض سرير. وسّدَت ماري رأسها إلى كتف كولين الذي أسند رأسه إلى الجدار خلفه في مساحةٍ بين أنبوبَي تصريف مياه أمطار. هرول كلبٌ نحوهما قادمًا من ناصية مُضيئة آخر الشارع، بينما رؤوس مخالبه تقرع بثبات طوبَ الأرض الذي أبلاه الزّمن. لم يقف حين اقترب منهما، ولم ينظر إليهما أصلًا، بل تابع هرولته حتى ذاب في العتمة، غير أن وقع هرولته ما زال يُسمَع.

"كان علينا أن نجلب تلك الخرائط" قالت كولين.
مالت ماري عليه أكثر وهمهمَت "لا يهمّ الآن. نحن في إجازة".
استيقظا بعد ساعة على أصوات ضحك. من مكان ما مرتفع، قُرعَت أجراسٌ قرعًا منتظمًا. عمّ الضوء الأرجاء، والنسائم أصبحت دافئة رطبة، مثل أنفاس حيوان. عبرَ قبالتهما أطفال صغار مرتدين ثيابًا فضفاضة فاتحة الزُّرقة، ذات ياقات وأكمام سوداء، وكلّ واحد منهم يرفع على ظهره عاليًا حزمة كتب مرتّبة. نهض كولين واقفًا، وترنّح، قابضًا على رأسه بكلتا يديه، إلى أن توسّط الشّارع الضيّق الذي كانا فيه، حيث افترق حوله حشدُ أطفال وامتزجوا من جديد عندما تجاوزوه. رمت طفلة صغيرة كُرة مضرب على بطن كولين، ثمّ التقطتها بمهارة فور ارتدادها. أطلق المشاهدون الصّغار صيحات مرح وتهنئة. ثم خبا رنين الأجراس، وصمتَ من بقي من الأطفال، ثم رحلوا. تبخّر كل شيء من الشارع فجأة فاتّضحت معالمه. كانت ماري تميل بجذعها كلّه عند العتبة، تهرش عنيفًا بكلتا يديها إحدى ساقيها. وقف كولين في مكانه وسط الشارع، يتمايل قليلًا، ينظر جهة البيوت الواطئة.
"ثمّة ما قرصَني..." قالت ماري.
ذهب كولين ووقف خلفها وراح ينظر إليها وهي تهرش ساقها. عددٌ من البُقَع الحمراء راحت تتّسع بحجم القروش المعدنيّة وباتت قُرمزيّة مُشعّة. "لن أتابع الحكّ لو كنتُ مكانك" قال كولين. ثمّ التقط رسغها وجذبها معه إلى الشارع. ما زالت أصوات الأطفال تتناهى إليهم من بعيد وراءها، تشوّش عليها بعض أصوات الموسيقى التي تقترح وجود فصلٍ واسع من الطلّاب الذين يردّدون أنشودة دينية، أو جدول حساب.

قفزت ماري على قدميها، متهكمة من نفسها رغم عذابها "يا إلهي، سأموت لو توقفت عن هرشها! وأنا جدُّ عطشة..."
كولين، في خضمّ دُوار الخمرة الصباحيّ الذي يعصف برأسه، استحوذت على صوته نبرةٌ سُلطويّة خشنة قليلًا، غريبة عليه. واقفًا وراء ماري، ملتصقًا بها، مثبّتًا يدَيها إلى جانبَيها، أشار إلى نهاية الشارع وقال في أذنها مباشرة "لو توجّهنا إلى هناك، أظنّنا سنواجه البحر فورًا، حيث سنجد قربه مقاهٍ مفتوحة"
أمّا ماري، فقد تركت نفسها تُدفَع هكذا. قالت "لم تحلق ذقنك"
"تذكّري" قال لها كولين بينما يسيران بالسُّرعة التي يدفعهما بها انحدار الشارع "نحن في إجازة"
البحر يستلقي مباشرة بعد المنعطف. واجهة البحر كانت ضيّقة قاحلة، محصورة من كلا الجهتين بسلسلة بيوت أبلاها الطقس. ثمّة عمودان يرتفعان من مياه البحر الهادئة المصفرّة، يُشيران إلى جهات غريبة عبثيّة في المياه، ولم تكن هناك قوارب راسية حولها. إلى يمين كولين وماري، سهمٌ نُقرَ في يافطة إرشاديّة يُشير إلى وجود مشفى في آخر رصيف الميناء. طفل صغير، ترافقه امرأتان في متوسّط عمرَيهما، تحملان أكياس بلاستيك منتفخة بالحاجيّات، وصلا إلى الواجهة المائيّة في الشارع نفسه حيث يقفان. توقفت المجموعة عند اليافطة. انحنت المرأتان تفتّشان في الأكياس كأنهما نسيتا شيئًا. وعندما تابعوا سيرهم، أصدر الطفل صوتًا مزماريًّا طالبًا حاجة ما، لكنه أُسكت فورًا.
اقتعد كولين وماري صناديق تعبئة موضوعة عند رصيف الميناء، تفوح برائحة أسماك ميتة. إنّه مصدر راحةٍ لهما أن تركا وراءهما

ضِيق شوارع المدينة وأزقّتها، وباتا يتأمّلان اتّساع البحر. يسود مشهد البحر هذا وجود جزيرة مستوية الأرض ومُحاطة بجدران على مبعدة مِيلَين من الميناء، إنّها مقبرة. تقوم في إحدى نهايتَيها كنيسة صغيرة، ويمتدّ منها لسانٌ حجريٌّ داخل البحر. عبر تلك المسافة الفاصلة، تشوّش الرؤية رطوبة أوّل الصّباح المنتشرة في الهواء المُزرَقّ، لا يظهر من الجزيرة سوى رؤوسٌ طافية لأضرحة وشواهد قبور، ما أعطاها شكل مدينةً متقدّمة آتية من المستقبل. وخلف سديمٍ واطِئ من مخلّفات التلوّث البيئي، ترى الشّمس قُرصًا صغيرًا ودقيقًا، لها لون الفضّة المتّسخة.

مرّة أخرى، توسّدت ماري كتف كولين "عليك أن تهتمّ بي اليوم" قالت له بينما تتثاءب.

مسّد ظاهرَ عُنُقها، "إذًا لقد اهتممت بي البارحة؟"

أجابت برأسها موافقة ثم أغمضت عينيها. إنّه عادةٌ جارية بينهما، أن يطلب أحدهما من الآخر الاهتمام به دوالَيك. وقد حرصا على أداءها. أنامَ كولين ماري بين يديه، وقبّل أذنها قُبلةً هي أقرب لأن تكون اختصارَ قُبلة. ظهرت حافلة مائيّة قادمةً من وراء الجزيرة، وبدا أنها تنوي الرسوّ عند اللسان الحجريّ. رغم المسافة، كان بالإمكان رؤية خيالات ضئيلة سوداء لأناس ينزلون من المركب، حاملين ورودًا. عبر الماء، طارت صيحة حادّة لكن واهنة، ربما كانت لطفل، أو نورس، بعدها ابتعد المركب عن الجزيرة.

كانت الحافلة المائيّة تتوجه إلى اللسان الحجري المخصّص للمشفى، الكامن وراء منعطف في رصيف الواجهة البحريّة، خارج مجال الرؤية من مكانهما. لكن المشفى نفسه يرتفع في أبراج أعلى من كل ما حولها

من مبانٍ، يُشرف على المدينة مثل أبراج المراقبة في القِلاع، له طلاء بصُفرة الخردل، وأسطح مستوية ذات آجر أحمر يدعم أعمدةَ هوائيّات تكاد تتهاوى. لبعض الأجنحة نوافذ عالية مقلّمة الدرفات، تنفتح على شُرُفات بحجم القوارب الصغيرة، حيث ترى المرضى والممرضات مُرتدين ثيابًا بيضاء، ويتأمّلون البحر وقوفًا أو قعودًا. شوارع الواجهة البحرية خلف ماري كولين راحت تمتلئ بالناس. نساء مُسنّات يلفُفن شالات سوداء حولهنّ ويلتحفن الصّمت، يمشين بتثاقل حاملات أكياس تسوّق فارغة. ومن منزل قريب انبثقت رائحة قهوة نفّاذة ودخان سجائر، فامتزجت مع عطونة السّمك الميت حتى طمستها. ثمّة صيّاد ذابل الجسد، يرتدي بدلة رماديّة بالية ممزّقة وقميصًا كان فيما مضى أبيض ودون أزرار، كأنه أمضى سنوات هاربًا من عملٍ مكتبيّ، رمى شباك صيد قُرب صناديق الحافظات، تقريبًا فوق أقدام كولين وماري. صدرَت عن كولين إيماءة اعتذاريّة مُلتبسة. لكن الصيّاد، الذي تابع السّير مبتعدًا، قال بامتعاض واضح "سيّاح!" ولوّح بيده نحوهما تلويحة تأمرهما بالانصراف.

أيقظ كولين ماري، وحاول استمالتها كي تسير معه إلى المشفى نحو اللسان الحجريّ. إذا لم يجدا هناك مقهى، فإن الحافلة المائيّة سوف تقلّهما عبر القنوات المائيّة إلى مركز المدينة، ليس بعيدًا عن فندقهما. عندما وصلا بيت الحراسة الذي يظلّل بوّابة المشفى، كانت الحافلة المائيّة على وشك المغادرة. ثمّة شابّان يرتديان معطفين زرقاوين، ونظّارات داكنة ذات إطارات فضيّة متطابقة، ولكلّ واحد منهما شاربٌ نحيف مستقيم مثل خطّ قلم رصاص، هما من يُديرا الحافلة المائيّة. الأوّل وقف متأهّبًا عند عجلة الدّوران، بينما الآخر حلّ حبل المرساة

عن عمود عقْد الحبال بتدوير ذراعه في الهواء بمهارة وازدراء خفيف.
وفي آخر لحظة ممكنة، قفز إلى الحافلة عبر المسافة المائيّة المبقّعة بالزّيت التي راحت تتّسع بين الحافلة وحافة اللسان الحجريّ، مُحرّرًا بخفّة وفي الوقت نفسه الحاجز المعدنيّ الذي يجتمع عنده الركّاب، وأغلقه بنظرة لا مبالية نحو رصيف الميناء، بينما صوته يعلو محدّثًا رفيقه في العمل.
دون أن يناقشا الأمر، استدار كولين وماري عن البحر، وانضمّا إلى جموع الناس التي تذرع بيت الحراسة، ينحدرون الدّرب المُفضي إلى المشفى والمزيّنة جوانبه بالشّجيرات. تقتعد نساء مسنّات مقاعد دون ظهر ولا ذراعين، يبعن مجلّات وورودًا وصلبانًا وتماثيل صغيرة، لم يقف أحد لهنّ، ولا حتى للنظر المجرّد.
"إن كان ثمّة مبنى للعيادات الخارجية، فلا بدّ من وجود مقصف ما،" قال كولين، وأحكم قبضته على ذراع ماري.
انفجرت ماري غاضبة "لا بدّ لي من شربة ماء، إنّهم يقدّمون ذلك على الأقلّ!" شفَتها السّفلى مكسورة، وهالات سُود تحيط عينيها.
"ذاك من واجبهم" قال كولين. "إنّه مشفى في النهاية!"
تشكّلَ طابور أمام صفّ من الأبواب الزجاجيّة المزخرفة المسقوفة بشِبه دائرة من زجاج معشّق. بوقوفهما على أصابع أقدامهما، ومن خلال انعكاس صور الناس والشُّجيرات على الزجاج، استطاعا رؤية شخصٍ في بدلة رسميّة، بوّاب ربما، أو شرطيّ، يقف في بُقعة شبه مُظلمة بين صفّين من تلك الأبواب الزجاجيّة، يستوثق هويّات الزوّار. الناس حولهما جميعًا كانوا مشغولين بفحص جيوبهم أو حقائبهم لاستخراج بطاقاتهم الرسميّة فاقعة الصُّفرة. من الواضح

أنها كانت ساعة الزّيارة، فلم يبدُ المرض على ملامح أيّ من المُنتظرين.
تقدّم الجمع محتشدًا عند البوّابة. ثمّة شارَة منمّقة مرفوعة على حاملة خشبيّة، تُعلن بجُملة طويلة عن أمرٍ ما وتلمع فيها كلمة "الأمن" مرّتين.
كانا جدّ متعبَين إلى حدٍ لم يتمكّنا معه من مغادرة الصفّ في الوقت المناسب، ولا أن يشرحا حاجتهما إلى بعض المرطّبات للحارس بعد أن عبرا العتبة فواجهاه. وهكذا عاد كولين وماري مرّة أخرى إلى الشارع، مدفوعَين باقتراحات الحشد المتعاطف عند البوّابة. يبدو أن هناك عدّة مقاهٍ في الجوار، لكن لا أحد منها قريب من المشفى. قالت ماري إنها تريد الجلوس في أي مكان كي تبكي، وحدث أنهما خلال بحثهما عن مكان مناسب، سمعا صيحة، ثم هديرًا مكبوتًا من محرّك مائي ينطفِئ. ثمّة حافلة بحريّة تُربَط حبالها عند الرّصيف.

للوصول إلى الفندق، كان لا بدّ من عبور أحد أكثر الأماكن السياحية ازدحامًا في العالم: فُسحة على شكل إسفين، مرصوفة بالطّوب، محاطة من جهاتها الثلاثة ببناء واحد له ممرّات مُشاة مسقوفة وتنفتح على الساحة عبر أقواس كثيرة متجاورة جَليلة المنظر. أمّا الجهة الرابعة، المفتوحة، فيقف فيها بُرج ساعة أحمر الطّوب، تقع خلفه كنيسة شَهيرة ذات قِباب بيضاء وواجهات لامعة، تمثّل – هكذا تُوصَف – عظمة انتصار التحضّر الإنسانيّ هنا عقودًا طويلة. بين الكنيسة وبرج الساعة ميدان تصطف على جانبيه الطويلَين عبر الأرض المرصوفة – مثل جيشَين متعاديين – مقاعد متقاربة ومحتشدة حول طاولات مدوّرة تابعة لمقاهٍ عريقة؛ وثمّة فِرَق موسيقيّة يقوم

بها عازفون رجال، يرتدون معاطف موحّدة، ويتناسون حرّ الصباح بعزف مقطوعات حربيّة وأخرى رومانسيّة في الوقت ذاته: والتز، ومجتزآت من أوبرات معروفة بنغماتها الرّعديّة العالية. الحمائم في كل مكان: تجتمع، وتتهادى، وتتذرّق. عندما تنتهي كلّ فرقة موسيقية من العزف، تتوقف قليلًا مُتيحةً لأقلّ تصفيق واهن أن يعلو من الزبائن الأقرب إليها. كُتَل كثيفة من السيّاح، بعضها يندفع عبر الميدان جيّد الإضاءة، وأخرى تُقاد في مجموعات صغيرة حتى تذوب في رُقَع أحاديّة اللون من الضوء والظلّ خلف الأقواس ذات الأعمدة الأنيقة. تقريبًا ثُلثا السيّاح الرّجال يحملون آلات تصوير.

ترجّل كولين وماري بصعوبة عن الحافلة المائيّة، والآن، قبل عبور الميدان، توقّفا في ظلّ بُرج الساعة المتناقص. تنفّست ماري أنفاسًا سريعة متتالية، ورفعت صوتها فوق الضّجيج، أنّ عليهما العثور على شربة ماء هنا. قريبَان من بعضهما، راحا يسيران على شفا الميدان، لكنهما لم يعثرا على طاولة شاغرة، ولا حتى طاولة يُمكن مشاركتها مع آخرين، فاتضح لهما أن حركة الجموع الدائبة عبر الميدان جيئة وذهابًا، في جزء كبير منها، هي بهدف البحث عن مكان للجلوس، وأنّ مَن لم ينجح في ذلك تُركَ في متاهة الشوارع يبحث في حنَق.

أخيرًا، وفقط بعد عدّة دقائق وقوفًا جوار طاولة يجلس إليها زوجان مُسنّان يتململان بينما يلوّحان بأوراق المال للحساب، استطاعا الجلوس. اكتشفا حينها أن الطاولة تقع في بُقعة نائية عن المساحة التي يهتمّ بها النُّدُل، وأن أكثر الجالسين ممّن تتطاول أعناقهم نحو النُّدُل ويطقطقون بأصابعهم دون أن يُسمَعوا، سوف يُخدَمون قبلهما. حدّقت ماري في كولين بعينين ضاقتا من الاحمرار، وهمهمت

كلماتٍ من خلال شفتيها المطبقتين اللتين في بداية التورُّم. وعندما عرض عليها كولين، مازحًا، شُربَ بقايا قهوة من كوب صغير أمامهما، دفنت وجهها بين كفّيها.

نهض كولين وسار سريعًا بين الطاولات نحو رواق الحانة. لكن مجموعة النُّدُل الغاطسة في ظلال عميقة عند المدخل هشّوه بعيدًا، "لا ماء هنا" قال أحدهم، وأشار إلى البحر السّاطع من الزبائن الجاهزين للدفع والمؤطّرين بظلال داكنة من الأقواس. عائدًا إلى الطاولة، تناول كولين كفّ ماري. كانا يجلسان على مسافة واحدة من فِرقتين موسيقيّتين، ورغم أن عزفهما لم يكن صاخبًا، فإن تنافر نغماتهما وتقاطعها صعّب عليها التفكير في حلّ. "أظن أنّ كلّ فِرقة تشرع في معزوفة ما..." قال كولين بانزعاج.

ترك كلّ واحد منهما كفّ الآخر واستند إلى الوراء. لاحق كولين تحديقة ماري إلى أُسرةٍ قريبة فيها طفل أوقفه والده على طاولتها مُمسكًا خصره، وغدا يتمايل بين المنافض والأكواب الفارغة. يرتدي الطفل قبّعة شمس بيضاء، وقميصًا قصير الأكمام مخطّطًا بالأخضر والأبيض، وبنطالًا منتفخًا مزخرفًا برباط ورديّ وشريط أبيض، وجواربَ قصيرة صفراء، وحذاءين جلديّين أنيقين. المصّاصة ذات الإطار المدوّر الشّاحب الزُّرقة مدفونة بإحكام في فم الطفل وجوانبها تغطّيه، ما أعطى وجهه تعبيرًا ظريفًا ثابتًا بالانبهار. ثمّة ذيلٌ من اللعاب في رُكن فمه، يجتمع في طيّة ذقنه العميقة، ثم يفيض بعدها على شكل قلادة. كفّا الطفل مقبوضتان وغير مقبوضتين، ورأسه يتهادى في تساؤل، بينما قدماه الثخينتان الهشّتان تتباعدان دون حرَج كاشفتين عن حفّاظة منتفخة مُثقلة. عيناه البرّيتان،

الواسعتان البريئتان، تتوهّجان عبر الميدان المضاء بالشمس، وتستقرّ نظرتهما على خطّ سقف الكاتدرائيّة بشيء من الاندهاش المشوب بالغضب. كُتِبَ مرّةً أن أعراف الأقواس في سقف الكنيسة، تبدو في هيئة نشوانة جعلتها تتفتق عن زَبَدٍ رخاميٍّ، قاذفةً نفسها بعيدًا لتطال السماء الزرقاء بالتماعات وأكاليل من الرّذاذ المنحوت، كأنّ أمواجًا عند الشاطئ قد تجمّدت قبل أن تهوي لتتكسّرها الصخور.
أصدر الطفل بعض الأصوات الحلقيّة الغليظة، بينما يداه ترفرفان في اتجاه الكاتدرائيّة.
رفع كولين يده بشيء من الكسل عندما انعطف نحوهما نادلٌ حاملًا صينية من القناني الفارغة. لكن الرجل تجاوزهما وبات على بُعد عدّة خطوات منهما قبل أن يُنهي كولين نصفَ إشارته نحوه.
الأُسرة على وشك المغادرة، وقد تنقّل الطفل بين الأيادي حتى وصل إلى والدته، التي أنامته على ظهره بحذر في عربة ذات إطار فضيّ، وراحت تؤمّنه بشدّ السيور الجلديّة وتلقيم المشابك بعضها ببعض حول أطرافه وصدره. استلقى الطفل مثبّتًا نظرته الغاضبة على السماء بينما يُدفع بعيدًا.
"أتساءل،" قالت ماري بينما تشاهد العربة تمضي "كيف هو حال ابنيّ". ابنا ماري يمكثان هذه الفترة مع والدهما الذي يعيش في الرّيف. ثمّة ثلاث بطاقات بريديّة معنونة إليهما، كُتبَت كلّها خلال يومها الأول في الفندق، ما تزال على المنضدة جوار السرير في غرفة الفندق دون طوابع.
"يشتاقان إلى تلفازهما، ونقانقهما، وكتبهما المصوّرة، ومشروباتهما المخفوقة، لكنهما رغم ذلك بخير كما أظن" قال كولين.

ظهر رجلان يمسك أحدهما كفّ الآخر، يبحثان عن مكان للجلوس، وقد انتصبا متقاربين عند طاولتهما وهلة.
"كل هذه التلال والمساحات المشرعة على اتّساعها،" قالت ماري "هل تعرف أن هذا المكان يغدو خانقًا أحيانًا رغمًا عنها؟" ثمّ سطعت عيناها نحو كولين "إنّها حالٌ مُرهقة"
تناول يدها "يجب علينا إرسال تلك البطاقات"
سلّت ماري كفها من كفّه والتفتت تُجيل النظر في مئات الأقدام من الأقواس والأعمدة المكررة.
كولين أيضًا أجال النظر. لم يكن ثمّة نادلٌ في مرمى النظر، بينما الجميع لديهم كؤوس ممتلئة.
"المكان هنا كالسّجن" قالت ماري.
كتّف كولين ذراعيه وراح ينظر إليها بُرهةً دون أن يطرف له جفن. إنها فكرته، السفر إلى هنا. أخيرًا قال "رحلة طيران العودة مدفوعة مسبقًا، ولن تقلع قبل عشرة أيام"
"نستطيع ارتياد القطار"
تجاوزَت نظرات كولين رأس ماري.
توقّفت الفرقتان الموسيقيّتان عن العزف في اللحظة نفسها. أعضاء الفرقتين راحوا يشقّون طريقهم نحو الممرّات المسقوفة، حيث ستفضي بهما كلّ إلى مشرَب مقهاه. دون موسيقاهما، بات الميدان أكثر ريبة، يملؤه جزئيًّا وقعُ خُطى، ودقّ كعوب، وصفق صنادل، وأصوات همهمة واستغراب، وصياح أطفال، وأوامر أبويّة بالانضباط. كتّفت ماري ذراعيها وتركت رأسها يهوي عليهما.
نهض كولين ولوّح بكلتا يديه نحو نادلٍ أومأ له وراح يسير نحوهما،

جامعًا طلبات الزبائن والكؤوس الفارغة في طريقه إليهما. "لا أصدق أن هذا يحدث أخيرًا!" صاح كولين مبتهجًا.

"كان علينا أن نجلبهما معنا" قالت ماري ووجهها يرنو إلى حجرها.

كولين لم يفتأ على قدميه "إنه قادم بالفعل"! ثم جلس وجذبَ معصمها إليه. "ما الذي تريدين طلبه؟"

"يا لنذالتنا، لقد تركناهما خلفنا"

"أعتقد أنه كان قرارًا يراعي خصوصيتنا"

النادل ضخم، غنيّ الحضور، ذو لحية كثيفة آخذة في الترمّد، ونظارة ذهبيّة الإطار، ظهر فجأة عند طاولتهما. مال نحوهما بحاجبين مرفوعين قليلًا.

"ما الذي تودّين طلبه يا ماري؟" همس كولين مستعجلًا الإجابة.

ضمّت ماري يديها في حجرها وقالت "كأس ماء دون ثلج"

"أجل، كأسان من فضلك" قال كولين بحماسة، ثم تابع "و..."

لكن النادل انتصب، وصدرَ من منخاره صفرة استهجان قصيرة "ماء؟" قال على مبعدة منهما. أجال نظره بينهما، يقيّم مدى حيرتهما، ثم تراجع خطوة، وأومأ ناحية زاوية من الميدان "الصنبور هناك"

عندما همّ بالسير مبتعدًا عنهما، استدار كولين على كرسيه محاولًا القبض على كُمّه، وهذا ما حدث، قال "لا، ليس هذا فقط أيها النادل" راح يرجوه "نرغب أيضًا ببعض القهوة وبعض ال..."

حرّر النادل ذراعه وقال "قهوة!" مُعيدًا ما قاله كولين، بينما منخاراه اتّسعا سُخريةً. "قهوتان؟"

"أجل، أجل!"

هزّ الرّجل رأسه وغادرهما.

انهار كولين في كرسيه وأغمض عينيه هازًّا رأسه ببطء، فيما كافحت ماري كي تستقيم في جلستها.

برقّةٍ لكزته بقدمها تحت الطاولة قائلة "كفّ عن ذلك! نحن على بُعد عشر دقائق وحسب من الفندق". أومأ كولين دون أن يفتح عينيه. "يمكننا الاستحمام، والجلوس في شرفتنا، وطلب ما بدا لنا، وسوف يصعدون به إلى حيث نحن". كلّما غاص ذقن كولين أكثر في صدره، شعرت ماري بالحيوية. "نستطيع الانسلال إلى أسرّتنا، إممم، تلك الشراشف البيضاء النظيفة. ولسوف نغلق الدرفات. هل تتخيّل ما هو أمتع من ذلك؟ ولسوف..."

"حسنٌ،" قال كولين بتثاقل. "هيّا نسير إلى الفندق". لكن لم ينهض منهما أحد.

زمّت ماري شفتيها ثم قالت "لا شكّ أنه سيجلب لنا القهوة على أي حال. عندما يهزّ الناس رؤوسهم هنا، فذاك يعني الاحتمالات كلها" خلال تعاظم حرارة الصباح، اختفت الحشود. بات هناك الآن عدد لا بأس به من الطاولات المتاحة. وأولئك الذين ما زالوا يسيرون في الميدان فهُم بين سيّاح صادقين تهمّهم زيارة المعالم، وبين مواطنين ذوي وجهات محدّدة. كل تلك القامات المتباعدة، التي ضاءلتها ضخامة المساحات الفارغة، تتلألأ في الهواء المكفهر. عبر الميدان، اجتمعت فرقة موسيقية وكانت على وشك أن تعزف مقطوعة فالس فيينا. قائد الأوركسترا كان يقف جهة كولين وماري، يقلّب أوراق اللحن الموسيقي، بينما العازفون يأخذون مجالسهم ويُصلح كلّ واحد منهم أوراقه على حامل الأوراق أمامه. إحدى تبعات معرفتهما الحقّة بعضهما بعضًا هي أنْ يجد كولين وماري نفسيهما يحدقان إلى الشيء نفسه دون تعليق:

هذه المرّة، كانا يحدقان إلى رجل يقف على بُعد مئتي قدم عنهما وظهره إليهما. بدلته البيضاء ساطعة تحت الضوء، كان قد توقف ليستمع إلى مقطوعة الفالس. يحمل في يدٍ آلة تصوير، وفي الأخرى سيجارة. يميل بثقله إلى قدم واحدة فيما يهزّ رأسه محاكيًا إيقاع النغمات. ثم التفت فجأة وكأنه ملّ ما يسمع، فالمقطوعة لم تنته، وشرع يمشي بتسكّع نحوهما، وقد رما في طريقه السيجارة وداسها دون النظر إليها. من جيب قميصه العلويّ، دون أن يُبطئ مشيته المندفعة، استلّ نظّارة شمسية ولمّعها لحظاتٍ بمنديل أبيض قبل ارتداءها. بدا أنه يقتصد في حركاته وكأنه يبتدعها توًّا. رغم نظارته الشمسيّة وبدلته الأنيقة وربطة عنقه الرماديّة الحريرية، استطاعا تمييزه، وراحا يتابعان عبوره جوارهما بانشداه. لم يكونا متأكدين من أنه رآهما، لكنه يتّجه مباشرة إلى طاولتهما.

تذمّر كولين "كان علينا الذهاب إلى الفندق"

"يجب أن نشيح وجهَينا بعيدًا" قالت ماري، لكنهما استمرّا ينظران إليه بينما يقترب منهما، خاضعين لإحساس جديد من نشوة أن تميّز أحدًا ما في بلدٍ غريب، أن ترى ولا تُرى.

"غادر ولم ينتبه" همس كولين، لكنّ همسته تلك بدت كأنها إشارة البدء، فقد توقّف روبرت عن السّير، نزع نظارته وفردَ ذراعيه على اتّساعهما صائحًا "صديقَي!" تقدّم وصافح كولين، ورفع كفّ ماري إلى شفتيه.

استرخيا كلٌّ في كرسيّه وراحا ينظران إليه بوَهن. عثر له على كرسيّ وجلس بينهما، مبتسمًا ما أمكنه الابتسام وكأنه افترق عنهما منذ سنوات طويلة، لا قبل ساعات مضت توًّا. يجلس مُنبسط الأطراف،

السّاق على السّاق، ما كشف عن حذاءه الجلديّ الناعم ذي الصُّفرة الباهتة. ثمّة نسمة كولونيا، تختلف عن العطر الذي اشتمّاه البارحة منه، انتشرت حول الطاولة. عاودت ماري هرش ساقها. عندما أوضحا له أنهما لم يعودا بعد إلى الفندق، وأنهما في الحقيقة ناما على قارعة الطريق، شهق روبرت وقد هالَه ما سمع، واستوى في جلوسه. عبر الميدان، اندمجت مقطوعة فالس بأخرى، وقُربهما ثمّة فرقة شرعت تعزف بصليلٍ عالٍ مقطوعة تانغو "Hernando's Hideaway".

"إنها غلطتي!" صاح روبرت. "أبقيتكما إلى وقت متأخّر أصبّ لكما النبيذ وأروي لكما ذكرياتي السخيفة"

"توقّفي عن الهرش" قال كولين لماري، ثم مباشرةً لروبرت "لا، أبدًا. فقد نسينا أن نجلب معنا خريطة المدينة..."

لكن روبرت كان قد نهض بالفعل، ووضع كفّه على ساعد كولين، بينما الأخرى تحاول الوصول إلى كفّ ماري. "أجل، أنا مسؤول عن ذلك. يجب عليّ إصلاح الأمر. سوف تتفضّلان بقبول ضيافتي"

"أوه، لا نستطيع،" قال كولين بنبرةٍ مُبهَمة. "نحن نقطن فندقًا قريبًا"

"عندما يبلغ فيكما التعب مبلغه، لا يعود الفندق مكانًا جيّدًا للرّاحة. سوف أريحكما حتى تنسيا ما مررتما به من تعب البارحة" ثم دفع روبرت كرسيّه كي يُتيح لماري العبور.

أمسك كولين طرف تنّورتها "لكن، انتظري دقيقة..."

مقطوعة التانغو القصيرة وصلت إلى نهايتها فاستحالت بذكاء إبداعيّ إلى افتتاحيّة روسيني: انقلب التانغو إلى عزف بيانو سريع. ثم نهض كولين أيضًا، متذمّرًا من الجهد الذي عليه بذله كي يركّز في ما يحدث "انتظري..."

لكن روبرت، جاذبًا كفّ ماري، راح يقتادها بين الطاولات، لحركاتها بُطء وآليّة السّائر في نومه. التفت روبرت وصاح بنفاد صبر نحو كولين "سنستقلّ قارب أُجرة"
ساروا متجاوزين الفرقة الموسيقية، وبرج الساعة الذي بات ظلّه الآن ليس أطول من عقب سيجارة، وأفضت بهم الطريق إلى الواجهة المائيّة المزدحمة، مركز انطلاق قوارب الأُجرة لقَطع البحيرة حيث يجتمع هناك الملّاحون الذين ميّزوا روبرت فورًا وراحوا يتنافسون باحتدام على خدمته.

- 5 -

عبر المصاريع نصف المفتوحة، بعثت الشّمس الغاربة أشرطة ضوء برتقاليّة معيّنة الزوايا، تسقط على جدران غرفة النوم. إنها حركة خيوط الغيوم الدخانيّة، هكذا يُفترض، ما يدفع أشرطة الضوء للتلاشي حينًا ثم استعادة سطوعها وتمركُزها حينًا آخر.
راقبت ماري ذلك نصفَ دقيقة تامّة، قبل أن تستيقظ استيقاظًا كاملًا. الغرفة عالية السقف، بيضاء الجُدُر، قليلة الأثاث خفيفه، وبين سريرها وسرير كولين ثمّة طاولة منخفضة من البامبو تحمل جرّة حجريّة وكأسين. تستند إلى الجدار المتاخم خزانة منقوشة، فيها إناء خزفيّ وُضع فيه، بشكل مدهش، غُصَين ورد. أوراقها الجافّة التي استحال لونها إلى الفضيّ، تحرّكها وتخشخشها نسمات متقطّعة دافئة تدور في الغرفة، منسابةً من النافذة نصف المفتوحة. بدت الأرضية مكسوّة بقطعة واحدة متّصلة من لوح رخاميّ مرقّش بالأخضر والبُنيّ. استقامت ماري في جلستها دون كبير جهد، وأراحت قدميها على سطح

الأرضية البارد. ثمّة باب مضلّع القضبان، ينفتح مواربًا قليلًا، يفضي إلى حمّام مكسوّ بآجَرٍ أبيض. وباب آخر، الذي دخلا منه إلى الغرفة، كان مغلقًا. وهناك ثوب نوم أبيض معلّق على مسمار نحاسيّ. صبّت ماري لنفسها كأس ماء، كما فعلت عدّة مرّات قبل أن تنام، لكنها هذه المرّة احتست الماء ولم تبتلعه ابتلاعًا، واستوت في جلستها مستقيمة الظهر، تمدّ عمودها الفقري إلى أقصاه، ثم نظرت إلى كولين.

مثلها، كان عاريًا ومستلقيًا فوق الشراشف، يلتف جسده تحت الخصر، فيما جذعه بشكل غريب يميل نحوها. ذراعاه تتقاطعان فوق صدره مثل جَنين: جذعه؛ ساقاه المرداوَتان المتباعدتان قليلًا؛ قدماه غريبَتا الحجم في صغرهما مثل قدمي طفل، تميلان إلى أعلى؛ فقرات عموده الفقري الدّقيقة تجري عميقًا مشكّلة أخدودًا طول ظهره الضيّق، ينتهي نزولًا بنعومة أبرزَها الضوءُ الخفيض النافذ من المصاريع. ثمّة حول خصر كولين الضيّق، في بشرته البيضاء الناعمة، حزوز طفيفة تشبه تلك التي تحملها الأسنان، سبّبها مطّاط سرواله. ردفاه صغيران مشدودان، مثل ردفي طفل. مالت ماري إلى الأمام كي تمسّده، لكنها عدلت عن ذلك، فوضعت كأس ماءها جانبًا واقتربت من وجهه تتأمّله كما قد يتأمّل المرء تمثالًا.

مخلوق بافتتان، وبتجاهُلٍ حذقٍ للمقاسات العادية وتناسقها. أذنه – إحداها فقط كانت بارزة – واسعة الصّحن ونافرة، جلدها شاحب أملس حتى يكاد يشفّ، وتحوي في بطنها طيّات أكثر من المعتاد رؤيته في أيّ أذن، طيّات حلزونيّة. شحمة أذنه طويلة، منتفخة الرأس ودقيقة النهاية مثل دمعة. أما جفناه فكانا أشبه بخطّين ثخينين رُسما بقلم رصاص، يمتدّان إلى جسر أنفه حتى يكادان يتلامسان.

عيناه، في محجريهما العميقين، غامقتان حين يفتحهما، لكنهما الآن مُسدلتان برموش رماديّة متشابكة. العبوس الحائر الذي يطوي جلدة جبهته، الآن أثناء نومه، اختفى، تاركًا أثرًا بالكاد يُرى. الأنف، مثل الأذن، طويل، لكن هذه ميزة لا تَبين في اللقطات الجانبية؛ إنّه يمتد مستويًا عبر الوجه ثم ينحني ليشكّل قاعدته، مثل نهاية الفاصلة، منفتقًا عن منخارين صغيرين. فم كولين كامل الاستقامة ومنطبق، تظهر منه لمحة بسيطة جدًّا من صفّ أسنانه. لنعومة شعره ملمس غير طبيعي، مثل شعر طفل، أسود وينثال في التفافات على رقبته الأسطوانية النسائيّة.

خفّت ماري إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها.

الغرفة تواجه مباشرة الشمس الغاربة، ويبدو أنها على ارتفاع أربعة طوابق أو خمسة، أعلى من كل ما يحيط بها من أبنية. نظرًا للضوء القوي الساقط دون ميلان في عينيها، صعُب عليها التثبّت من تفرّعات الشوارع، وبالتالي لم تستطع تعيين مكانهما عن الأوتيل. الأصوات المختلطة بين وقع أقدام، وموسيقى طالعة من تلفاز، وقرقعة صحون ومواعين، ونباح كلاب، وما لا يعدّ ولا يحصى من الأصوات القادمة من الشوارع، كلها كأنها صَنيع أوركسترا ذات جوقة بالغة الضخامة. أطبقَت مصراعي النافذة بهدوء. وما كان منها وقد أغراها اتّساع المكان والأرضية الرخامية اللامعة الخالية من ثقيل الأثاث، إلا أن استعدّت لأداء تمارين يوغا. ما إن استشعرت بردفيها برودة الرخام عند جلوسها حتى تنفّست عدّة شهقات سريعة، بعدها مدّدت ساقيها أمامها وأقامت ظهرها مستقيمًا. انحنت إلى الأمام ببطء، مطلقة زفرة طويلة، خلال محاولتها القبض بكلّ كفّ لها باطنَ قدم، وهكذا

حتى التصق جذعها برجليها وأسندت ذقنها إلى الأرض. بقيت على هذا الوضع بضع دقائق، عيناها مطبقتان وتتنفس عميقا. وعندما رفعت نفسها، كان كولين قد استيقظ.

ما يزال في دوخة النوم، ينقل نظره من سريرها الفارغ إلى تشكّلات الضوء على الجدار فإليها على الأرض. "إذًا، أين نحن؟"

استلقت ماري على ظهرها وقالت "لست متأكدة"

"أين هو روبرت؟"

"لستُ أدري" ورفعت رجليها عاليًا ثم دفعتهما ناحية رأسها حتى استقرا على الأرض خلفها.

نهض كولين لكنه عاود الجلوس مباشرة "حسنٌ، ما الساعة الآن؟"

بات صوت ماري مكبوتًا "حلّ المساء"

"كيف هي الحكّة؟"

"ذهبت، شكرًا"

نهض كولين مجدّدًا، لكن هذه المرة بحذر، وأجال النظر حوله. كتّف ذراعيه "ما الذي حلّ بثيابنا؟"

قالت ماري "لا أعرف" ثم رفعت رجليها مستقيمتين ورفعت معهما جذعها فباتت ناهضة على كتفيها.

سار كولين متمايلًا إلى باب الحمام وأطلّ برأسه إلى الداخل "ليسوا هنا". ثم رفع إناء الخزف وفكّ مصراع الخزانة "ربما هنا".

"لا" قالت ماري.

جلس في سريره ناظرًا إليها. "ألا تظنين أن علينا العثور على ثيابنا؟ ألا يقلقك هذا الأمر؟"

"أشعر بالسعادة"

تنهّد كولين. "حسنٌ، أمّا أنا فسأذهب لأستطلع الأمر".

أنزلت ماري رجليها وقالت ناظرة إلى السقف "ثمّة عباءة نوم معلّقة على الباب" ثم سوّت أطرافها على الأرض بقدر ما استطاعت من هدوء وراحة؛ وجّهت باطن أكفها إلى أعلى، وأطبقت عينيها، وراحت تأخذ أنفاسًا طويلة وعميقة عبر أنفها.

بعد عدّة دقائق تناهى إليها صوت كولين مغَلّفًا بأصداء الحمّام، قائلًا بنزق "لا يمكنني ارتداء هذا!"

فتحت عينيها فيما هو يعاود الدخول إلى الغرفة. "بلى، أجل!" قالت ماري متعجبة، وخفّت قاطعةً الغرفة نحوه. "ما ألطفك هكذا!" ثم حرّرت عُقدة طوق العباءة المبطن حول خصره، وراحت تتحسّس جسده تحت القماش. "تبدو مثل إله! أخشى أني سأعيدك إلى الفراش!" ثمّ جذبت ذراعه إليها، لكنه ابتعد عنها.

"هذا ليس عباءة نوم على أيّ حال. إنّه رداءٌ مسائيّ..." وأشار إلى مجموعة زهور مطرّزة في صدر الرداء.

تراجعت ماري خطوة "ليس لديك أدنى فكرة عن مدى جمالك فيه!"

همّ كولين بنزع الرداء، ثمّ قال بينما لا يزال في جوفه "لا أستطيع السير هنا وهناك في بيت غرباء مرتديًا هذا".

"أجل، خصوصًا وهو شبه منتصب!" قالت ماري بينما تعاود تمارين اليوغا. انتصبت، قدماها تتلامسان ويداها متروكتان إلى جانبيها، ثم انحنت إلى الأمام كي تلمس أصابع قدميها، وأمعنت في ذلك حتى بسطت كفيها على الأرض.

وقف كولين ينظر إليها حاملًا الرّداء المسائيّ على ذراعه. "تلك أخبارٌ طيبة بشأن الحكّة" قال بعد برهة. ابتسمت ماري، وعندما اعتدلَت

من جديد سار إليها. "عليك ارتداءه" قال لها "اذهبي واعرفي ما الذي يجري".

قفزت ماري في الهواء وهبطت جاعلةً بين قدميها مسافة لا بأس بها. ثمّ مالت بجذعها حتى استطاعت أن تلمس بيُسراها كاحلها الأيسر، فيما كانت رجلها اليمنى في الهواء، وقد تتَبّعتها بعينيها حتى استقرّتا على السقف. أسقط كولين الرداء على الأرض ثم ذهب واستلقى على السرير. مرّت خمس عشرة دقيقة قبل أن تلتقطه ماري لترتديه، ورتّبت شعرها أمام مرآة الحمام. ثم، بابتسامة ظريفة ناحية كولين، غادرت الغرفة.

شقّت طريقها بحذر وأناة خلال رواق كبير من اللوحات، والكنوز، والأثاث، والأمتعة التي تشكّل متحفًا عائليًا ضيّقًا عبر مساحة المعيشة الممكنة حوله؛ كلها منمقة ببذخ، لا تُستَخدم لكن مُعتنىً بها بحُبّ: أثاث من الخشب الأحمر المحفور الملمّع، بعيدة الأقدام وذات وسائد مخمليّة. وثمّة ساعتان ضخمتان مؤطّرتان بدولابَين طويلين، تقفان إلى اليسار في ركنٍ يخصهما، متقابلتين مثل حارسين، وتتَكتك الواحدة منهما للأخرى. حتى المتروكات الصغيرة، من طيور محشوّة في علب زجاجية مقبّبة، وآنية خزفية، وصحون فاكهة، وحوامل مصابيح، وحاجيّات نحاسيّة وأخرى زجاجية لا يوضح الوصف أشكالها، بدت من الثقل بحيث يستحيل رفعها، فقد باتت مثبّتة في مكانها بثقل الزّمن والتاريخ الضائع. ثمّة مجموعة من نوافذ ثلاث، تتابع على الجدار الغربي وتنفذ منها الأشرطة البرتقالية نفسها –تلك الأشعة أمعنت الآن في التلاشي – وتتساقط على سجاجيد

مطرّزة بالية. تتوسط الرّواق طاولة طعام عريضة لامعة، تحيط بها كراسٍ متماثلة طويلة الظهر، وعند رأس الطاولة هاتف ولوح كتابة وقلم رصاص. تتوزع على الجدران أكثر من اثنتي عشرة لوحة، أغلبها لوحات شخصيّة (Portraits)، وأقلّها مشاهد طبيعيّة مصفرّة. اللوحات الشخصيّة معتّمة بظلالٍ رسميّة، وأردية أصحابها غامقة نكدة، وخلفياتها كدرة الألوان كأنها موحلة خلف وجوههم المُقمرة. ثمة لوحتان لمشهدين طبيعيين تُظهران شجرتين عاريتين من الأوراق، بالكاد يمكن تمييزهما في اللوحة، تتباسقان فوق بحيرات غامضة تنعكس عليها ظلال راقصة لشخوص على الشاطئ، يرفعون أيديهم متمايلين.

ثمة بابان في نهاية الرّواق، أحدهما دخلا منه إلى هنا، صغيران ضيّقان بمقاسات مختلفة، ولا يتماثلان في شيء عدا أنهما مصبوغان بالأبيض، يتركان في النفس انطباعَ أن المكان قصر، وأن كلّ باب يفضي إلى جناح خاص. كانت ماري قد وقفت عند خِوان وُضع لِصق جدار بين نافذتين، تخزّن فيه آنية طعام، تتعاكس التماعات أسطحه بما يُدهش العين ويُلفت النظر، ولكلّ دُرج من أدراجه مقبض نحاسيّ على شكل رأس امرأة، وكلّما حاولَت فتح أحدها وجدته مقفلًا. رُتّبت فوق الخِوان أدوات خاصّة معروضة بتفاخر: صَحَفة من أمشاط شعر فضيّة، وفُرَش تنظيف ثياب، وطاسة صينية مزخرفة للحلاقة، وعدّة شفرات حلاقة حادّة يبعث مرآها على شعور بقطع العُنُق – رُتّبت على شكل مروحة – وصفّ من غلايين التدخين على مُسنَدٍ أبنوسيّ، وسَوط، ونافضة حشرات، وصندوق ذهبيّ ناعم، وساعة جيب لها سلسلة. أمّا الجدار لصق

الخوان فيحمل مُلصقات رياضيّة أغلبها لأحصنة تتسابق، سيقانها في أوج تباعدها وفُرسانها يعتمرون قبّعاتهم.
طافت ماري الرّواق كله، تلتفّ حول كل قطعة أثاث كبيرة، متأمّلة المرايا المذهّبةَ الأُطُر، وذلك قبل أن تميّز القطعة الأساسية والأهم بينها جميعًا: ثمّة أبواب زجاجيّة في جدار الرّواق الشرقيّ، تُفضي إلى شُرفة عريضة. يصعُب عليها من مكان وقوفها رؤية التفاصيل في ظُلمة الغروب الخارجيّة بسبب أضواء الثريّات المنعكسة على الزجاج، لكنها ميّزَت وجود وَفرةً من النباتات المزهرة، والعرائش المتسلّقة، وشُجيرات في أحواض، ثمّ بغتةً شهقت وحبست أنفاسها. لقد رأت وجهًا صغيرًا شاحبًا ينظر إليها من بين الظلال، وجهًا دون رأس ولا جسد، فسماء الغروب وأضواء الغرفة المنعكسة على الزجاج جعلت من المستحيل رؤية شعر الوجه أو ثياب جسده. بقي الوجه يحدّق فيها دون أن ترمش عيناه، وجه بيضاويّ تامّ. ثم تراجعَ قليلًا وتحرّك جانبيًّا خلال الظلال فاختفى. زفرت ماري بعلوّ. صورة الغرفة على الباب الزجاجي ارتجّت عندما فُتح. امرأة شابّة، شعرها إلى الوراء معقود بقسوة ومشدود، خطت إلى الغرفة بحركة متيبّسة، وأشارت بيدها "تعالا إلى الخارج، الجو ساحر"
حينها، ظهرَت عدّة نجمات في السماء الأشبه بكدمة لُوّنت بألوان باليستيّة. رغم ذلك، يمكن تمييز البحر في البُعد بسهولة، ويمكن حتى رؤية أعمدة المراسي، وخطوط هي ملامح سوداء لجزيرة المقابر. تحت الشرفة مباشرة بنحو أربعين قدمًا، ثمّة للدار فناء مُهمَل. الكمية المهولة المتقاربة من أحواض الزهور في الشرفة بعثت شذىً مكثّفًا نفّاثًا، منفّرًا. جلست المرأة في كرسي قماشيّ مُصدرةً أنينًا.

"يا للجمال" قالت، وكأنها تردّ على تعليق بدرَ من ماري. "أقضي هنا من الوقت ما وسعني". أومأت ماري برأسها. تمتد الشرفة تقريبًا نصف طول الرواق. "اسمي كارولين، زوجة روبرت".
صافحَتها ماري وقدّمت نفسها إليها، ثم جلست على كرسيّ قبالتها. تفصلهما طاولة بيضاء صغيرة، تحمل صحنًا لم يبق فيه سوى قطعة بسكويت واحدة. صرصار ليلٍ يصدح من عريشة لبلاب تغطّي الجدار خلفهما. مرّة أخرى، راحت كارولين تحدّق في ماري كأنها تَرى ولا تُرى، نقلت عينيها بثبات من شعر ماري إلى عينيها ففمها وإلى الأسفل حيث تعترض الطاولة الرؤية.
"هل هذا لك؟" قالت ماري رافعةً كمّ الرداء الذي عليها.
بدا السؤال كأنّه قطعَ على كارولين حُلمَ يقظة. استقامت في جلستها، وضمّت كفيها في حجرها رافعةً ساقًا على ساق، كأنها تتّخذ وضعيّةً نُصحت باتّخاذها استعدادًا لأيّ حوار. عندما تحدثت، غدا صوتها مندفعًا وأكثر علوًّا من ذي قبل. "أجل، صنعته بيديّ هاتين أثناء جلساتي هنا، أحبّ التطريز"
أثنت ماري على عملها. ثم تبع ذلك صمتٌ عانت كارولين في العثور على موضوع يقطعه. وكبداية، وإن كانت متوتّرة، لاحظَت كارولين وقوع عينيّ ماري على قطعة البسكويت، فرفعت الصحن بهَبّة سريعة نحو ماري "أرجوك، تناوليها"
"أشكرك،" حاولت ماري أن تأكلها ببطء.
راقبَتها كارولين بقَدْرٍ من اللهفة. "يبدو أنّك جائعة، هل تودّين تناول بعض الطعام؟"
"أجل رجاءً"

لكن كارولين لم تنهض فورًا، بل قالت "آسفة، روبرت ليس هنا، وطلب مني الاعتذار نيابة عنه، فقد ذهب إلى حانته، لأسباب عمليّة بالطبع، فقد عيّن لها مديرًا جديدًا يباشر العمل الليلة"

رفعت ماري نظرها عن الصحن "حانته؟"

بصعوبة كبيرة سوّت كارولين جلستها، وراحت تتحدث من خلال ألمٍ بادٍ عليها "إنه يملك حانة، كنوع من التسلية كما يبدو، تلك التي أخذكما إليها..."

"لم يذكر قط أنه يملكها..."

رفعت كارولين الصحن ثم سارت نحو الباب. عندما وصلت هناك، كان عليها أن تستدير بجسدها كله كي تنظر إلى ماري، ثم قالت بنبرة محايدة "أنت تعرفين ذاك المكان أكثر مني، فلم يسبق لي زيارته"

عادت بعد خمس عشرة دقيقة بسلّة خوص مملوءة بلفائف، وكأسَي عصير برتقال. دخلت الشرفة وتقدّمت في أناة، سامحةً لماري أن تحمل عنها الصينية. بقيت ماري واقفة بينما تحاول كارولين الجلوس بطريقة مُريحة في مقعدها.

"هل آلمتِ ظهرَك؟"

لكن كارولين قالت ببساطة ولُطف "كُلي، واتركي شيئًا لصديقك..."

ثم أضافت بسرعة "هل أنت مولعة به، صديقك؟"

"تعنين كولين؟" قالت ماري.

تابعت كارولين الحديث بحذر واضح، كأنها تتوقّع أن تنفجر ماري غضبًا في أيّ لحظة "أرجو ألّا تمانعي سؤالي، فهناك أمْر عليّ أن أخبرك به. الأمر بسيط. هل تعرفين، لقد دخلت عليكما ورحت أتأمّلكما في

نومكما بعضَ الوقت. جلست هناك على الصندوق نصف ساعة. أرجو ألّا يغضبك ذلك"

ابتلعت ماري ريقها وقالت دون يقين "لا..."

بدت كارولين فجأة شابّة. لعبت بأصابعها مثل مراهقة خجول. "فكّرتُ أنه من الأفضل إخبارك، لا أريدك أن تشعري أني تجسّسْت عليك. أنت لا تظنّين ذلك، أجل؟"

هزّت ماري رأسها. صوت كارولين كان أرفع من الهمس قليلًا. "كولين وسيمٌ جدًّا. قال عنه روبرت ذلك. أنت أيضًا بالطبع".

أكملت ماري تناول اللفائف، واحدة تلو أخرى، مثبّتةً عينيها على كفّي كارولين.

تنحنحت كارولين "أظنّ أنك تعتقدين أني مجنونة، وفَظّة أيضًا. لكن هل أنت واقعة في الحب؟"

حينها كانت ماري قد تناولت نصف اللفائف، وواحدة أو اثنتين أكثر. "حسنٌ، أجل، أعتقد أني كذلك. لكنك ربما ترمين إلى أمر آخر بقولك 'واقعة في الحب'" ثم رفعت نظرها إلى كارولين فوجدتها تنتظر أن تواصل إجابتها. "أنا لست مهووسة به، إن كان هذا ما تعنينه، بجسده، كما كنت في بداية علاقتنا. لكني أثق به، إنه أقرب أصدقائي إلي"

تحدّثَت كارولين بحماسة أليق بالأطفال منها بالمراهقين "لكني أرمي من وراء 'واقعة في الحب' إلى أنك مستعدة لفعل أي أمر من أجل الشخص الآخر، و ..." ثم تردّدت، وكانت عيناها تبرقان ألقًا غريبًا "أن تتركيه يفعل بك أي شيء".

استرخت ماري في كرسيها وراحت تؤرجح كأسها الفارغة على مهل "أيّ

شيء' كلمة لا نهائية المعاني".
تحدثت كارولين بقطْعيّة، وقبضتاها الصغيرتان مشدودتان "إذا كنتِ واقعة في حبّ أحدهم فأنت مستعدّة لكل شيء حتى السّماح له أن يقتلك، إن كان ذلك ضروريًا"
تناولت ماري لَفيفةً أخرى وقالت "ضروريًا؟"
لم تسمع كارولين ذلك. "هذا ما أعنيه عندما قلت 'واقعة في الحب'" قالت كارولين بانتصار.
أبعدت ماري سلّة اللفائف عن مرمى متناولها "أفترض أنك مستعدّة لقتل الشخص الذي أنتِ 'واقعة في حبه'؟"
"أوه، أجل، لو كنتُ الرّجُلَ لفعلتُ ذلك!"
"الرجل؟" قالت ماري متسائلة.
لكن كارولين رفعت سبّابتها بأداء مسرحيّ، ومدّت عنقها قائلة بهمس "سمعتُ صوتًا" ثم شرعت في النهوض من كرسيها بمعاناة.
فُتح الباب الزجاجيّ وخرج منه كولين بحذر واضح، قابضًا على فوطة بيضاء حول خصره.
"هذه كارولين، زوجة روبرت" قالت ماري. "هذا كولين".
عندما تصافحا، كانت عينا كارولين تتصفحان كولين تمامًا كما فعلتا بماري، بينما عينا كولين تتفحصان ما بقي من لفائف. "قرّب لك كرسيًّا" قالت له كارولين مشيرة إلى كرسي قماشي مطويّ في زاوية بعيدة من الشرفة. جلس كولين بينهما معطيًا ظهره للبحر، مثبّتًا قبضته على الفوطة كي يبقيها في مكانها. وبينما تُمعن كارولين في مراقبته، تناول اللفائف. أبعدت ماري كرسيّها قليلًا عنهما كي تحظى بزاوية أفضل لتأمّل السماء. لم يتحدث أحد بُرهة، أنهى خلالها

كولين كأس البرتقال وحاول أن ينظر إلى حيث تنظر ماري. ومرّة أخرى، قامت كارولين – متعمّدةً الحوار – بتوجيه الحديث إلى كولين بسؤاله هل هو مستمتع بمقامه هنا؟ "أجل" أجابها، ثم ابتسم لماري "فقط لو أننا لا نتيه كثيرًا..."
تبع ذلك صمتٌ بُرهةً أُخرى، ثم دفعتهما كارولين للقفز فزعًا عندما صاحت فجأة "بالطبع! ملابسكما! لقد نسيت. كنت قد غسلتها وجفّفتها. إنها في الخزانة المغلقة في حمّامكما"
لم تُبعد ماري ناظريها عن النجوم التي راحت أعدادها تتضاعف في الظهور، قالت "إنه لطف كبير منكِ أن فعلتِ ذلك"
ابتسمت كارولين لكولين "تعرف، لقد حدستُ أنك ستتكشّف عن رجل مميّز..."
أصلح كولين من ترتيب الفوطة في حجره وقال "لقد أُخبرتِ عني من قبل إذًا؟"
"كارولين دخلت إلى غرفتنا وتأمّلتنا نائمَين" أوضحت ماري بنبرة صوت اهتّمت أن تكون محايدة.
"هل أنت أمريكية؟" سأل كولين بأدب جمّ.
"كنديّة رجاءً..."
أومأ كولين بخفّة كأنّه يُنكر أن هناك فرقًا بين الدولتين.
حبست كارولين ضحكة، ورفعت مفتاحًا صغيرًا "روبرت متحمّس جدًّا لأن تمكثا معنا لتناول العشاء. أمرني ألا أعطيكما المفتاح حتى توافقا". ضحك كولين بأدب بينما ماري راقبت كارولين وهي تلعب بالمفتاح بين سبابتها وإبهامها. "حسنٌ أنا جدُّ جائع" قال كولين ناظرًا إلى ماري التي قالت لكارولين "أفضّل أن أحظى بثيابي أوّلًا ثم أقرّر..."

"هذا بالضبط ما أردته، لكن روبرت مصرّ..." وغدت فجأة جادّة، ومالت إلى الأمام واضعةً كفّها على ذراع ماري "أرجوكِ، قولي إنكما ستبقيان. نادرًا ما نحظى بزوّار..." كانت ترجوهما، عيناها تتنقلان بين وجهَي كولين وماري. "سأكون سعيدةً جدًّا لو قلتما نعم، نحن نأكل طعامًا جيّدًا هنا. أعدكما بذلك..." ثم أضافت "إذا لم تبقيا فسيلومني روبرت أنا، أرجوكما قولا نعم..."

"هيّا بنا يا ماري!" قال كولين "لنبقَ".

"رجاءً!" ثمّة ضراوةٌ الآن في نبرة كارولين. رفعت ماري عينيها مشدوهة ثم نظرت المرأتان إلى بعضهما عبر الطاولة. أومأت ماري موافقة. وكارولين، بعد أن أطلقت زفرة ارتياح، مدّت المفتاح نحوها.

- 6 -

أبعد نجوم درب التبانة كانت واضحة، لا كنثارٍ لامع من غبار النجوم، بل كنقاط منفصلة من الضوء، ما دفع هذا التجمّع البرّاق أن يصير لفَرْط قُربه مبعثًا للقلق. الظُّلمة نفسها بدت ملموسة، دافئة ومنتفخة. شبكت ماري يديها خلف رأسها وراحت تتأمّل السماء. بينما جلست كارولين مائلة إلى الأمام بتوثّب، تتحرك نظرتها المتفاخرة بين وجه ماري والسموات، كأنها المسؤولة شخصيًّا عن عظمة ما ترى.

"أقضي الساعات هنا". بدا أنها تستجدي المديح، لكن ماري لم يطرف لها جفن.

تناول كولين المفاتيح عن الطاولة ناهضًا، "لكنت أنعم بشعور أفضل لو أنني أرتدي أكثر من هذا" وجمع الفوطة الصغيرة حوله مغطيًا ما انكشف من فخذه.

عندما غادرهما قالت كارولين "أليس الأمر عذبًا، عندما يخجل الرجال؟"

علّقت ماري بشأن وضوح النجوم وصفاءها، ومدى نُدرة أن تنكشف للمرء السماء الليليّة في المدينة. نغمة صوتها موزونة وإيصالية.
تابعت كارولين جلوسها صامتة، وبدا أنها تنتظر أن تتلاشى الأصداء الأخيرة للحديث القصير الذي جرى قبل أن تقول "منذ متى تعرفين كولين؟"
"سبعة أعوام" قالت ماري. ودون أن تلتفت نحو كارولين، مضت تحكي كيف أن ابنيها، اللذَين جنسَاهما كذا وعمرَاهما كذا واسماهما كذا – كما أوضحت في جملة اعتراضية طويلة – مغرمان ومفتونان بالنجوم، وفي استطاعتهما تسمية أكثر من اثني عشر برجًا وكوكبة، في حين لا تستطيع هي تمييز شيء غير الجوزاء الذي امتطى بحجمه الهائل السماء فوقهما، سيفه يلمع في غمده لمعانَ أطرافه المنفرجة المتباعدة.
ألقت كارولين نظرة إلى السماء، ثم أراحت يدها على ذراع ماري قائلةً "تشكّلان زوجًا مدهشًا، أرجو ألّا تمانعي قولي ذلك. كلاكما ذو جسد ممشوق، كأنكما توأمان، يقول روبرت إنكما لستما متزوّجين، هل تعيشان إذًا معًا؟"
كتفت ماري ذراعيها ونظرت إلى كارولين أخيرًا.
"لا، لسنا كذلك"
أهوت كارولين يدها عن ذراع ماري وراحت تحدّق فيها حيث صارت في حجرها كأنها ليست يدها. وجهها الصغير، وقد بدا بيضاويًّا بدقّة هندسيّة أبرزَها الظلامُ المحيط وشعرُها المرجّل إلى الوراء، وجهها رتيبٌ جدًّا بسبب عاديّته، خال من أي تعبير دال، وخال من العمر. عيناها، أنفها، فمها، جلدها... كلها يمكن أن تكون من تصميم لجنةٍ ما لتُطابق أقلّ المعايير المطلوبة. فمها، على سبيل المثال، ليس أكثر ممّا

تقترحه الكلمة نفسها، شِقٌّ متحرّك مُطبَق تحت أنفها. رفعت رأسها عن التحديق في حجرها، فوجدت نفسها تنظر مباشرة في عينَي ماري، فتركت نظرتها تسقط فورًا إلى الأرض بينهما، وتابعَت طرح أسئلتها كما في السابق "وماذا تفعلين، أقصد عملك الذي تعتاشين منه؟"
"كنت أعمل في المسرح"
"ممثلة!" هذه الفكرة أثارت كارولين، فمالت بطريقة غريبة على الكرسي، كأنّ جلوسها بظهر مستقيم يؤلمها، فرغبت في الاسترخاء. هزّت ماري رأسها "كنت أعمل مع مجموعة مسرَح نسائيّة. أنجزنا جيّدًا ثلاث سنوات، والآن انفصلنا. خلافات كثيرة..."
عبست كارولين "مسرح نسائيّ؟ ممثّلات وحسب؟"
"أراد بعضنا شِركةَ الرجال، على الأقل بين حين وآخر، بينما أرادت الأخريات البقاء على الحال السابقة نفسها، نقيّة، وهذا ما دفع إلى انفصال المجموعة بعضها عن بعض في النهاية"
"مسرحية بنساء فقط؟ لا أستطيع إدراك كيف يمكن لذلك أن يتمّ، ما الذي يمكن أن يحدث؟"
ضحكت ماري "يحدث؟" ثم كررت "يحدث؟"
كانت كارولين تنتظر إيضاحًا منها. أخفضت ماري صوتها، وتكلّمت مغطّية جزءًا من فمها بكفها كأنها تحاول محو ابتسامة ما "حسنٌ، يمكنك تمثيل مسرحية عن امرأتين التقتا توًّا في شُرفةٍ ما وشرعتا تتحدثان..."
اشتعلت كارولين قائلة "أوه أجل، لكنّهما غالبًا تنتظران رجلًا" ثم ألقت نظرة على ساعة يدها "عندما يصل سوف تتوقفان عن الكلام وتذهبان إلى الداخل، وسوف يحدث أمر ما..."

ثم اهتزّت كارولين فجأة في موجة من الضحكات السريعة، لكانت انقلبت إلى قهقهات صاخبة لو أنها لم تكبحها بصرامة. سوّت جلستها على الكرسي، استقامت، وحاولت أن تُبقي فمها مطبقًا. هزّت ماري رأسها بجديّة وتفادت النظر إلى كارولين التي سحبت نفسًا حادًّا من الهواء، هوَت بعده في هدوئها الذي كانت عليه، كأنها دون نَفَس.

قالت ماري "حسنٌ، على أيّ حال، لقد تركت ذاك العمل"

أمالت كارولين ظهرها ذات اليمين وذات الشمال، وبدا أن الوضعيّات كلّها تُتعبها. سألت ماري إن كان في إمكانها أن تجلب وسادة. هزّت كارولين رأسها باقتضاب قائلة "يؤلمني عندما أضحك". وعندما سألتها ماري عن سبب المشكلة، هزّت رأسها مجددًا وأغمضت عينيها.

استعادت ماري جلستها السابقة وراحت تتأمّل النجوم وأضواء قوارب الصيد. تنفست كارولين بعلُوّ أنفاسًا أنفيّة سريعة. بعد بضعة دقائق، حين بات تنفسها سلسًا، قالت ماري "أنتِ مُحقّة بطريقة أو بأخرى، بالطبع، إن أفضل الأدوار تُكتب للرجال، في المسرح وخارجه. لعبنا أدوار رجال عندما احتجنا إليها. رأينا تأثيرها البالغ في صالات الملاهي، عندما كان علينا إرسالهم إلى الأعلى. لقد مثّلنا مرّةً مسرحية هاملت كاملة بممثلات فقط. كان نجاحًا باهراً"

"هاملت؟" نطقت كارولين الاسم كأنها لم تسمع به من قبل. ثم نظرت لمحًا وراءها وقالت "لم أقرأها قط، ولم أحضر مسرحية منذ أن كنت في المدرسة". أثناء كلامها أنُيرَت مصابيح أخرى فجأة في الرّواق خلفهما، ما أضاء الشرفة من خلال الجدران الزجاجية، وألقى عبرها خطوطَ ظِلال عميقة. "أليست المسرحية التي فيها شبح؟" أومأت ماري بالإيجاب، وكانت تُنصت إلى وقع خطىً قطعت الرواق كلّه ثم

انقطعت الآن فجأة. لم تلتفت لتنظر من. كانت كارولين تراقبها.

"وأحدهم محبوس في دير؟"

هزّت ماري رأسها. تقدّمت الخطى من جديد ثم توقفت. صوت قدم كرسيّ تكشط الأرض، ثم قرقعة معدنية متتالية كتلك التي تصدر عن الأواني. "ثمّة شبح هناك" قالت بغموض "ودير أيضًا، لكننا أبدًا لا نراه!"

حاولت كارولين بصعوبة النهوض عن كرسيها. لحظةَ أن باتت على قدميها، كان روبت قد تقدّم بعناية ووقف وراءهما، ثم انحنى لهما مُحيّيًا. رفعت كارولين الصينية وتجاوزته ذاهبة. لم يتبادلا أيّ تحية، ولم يتزحزح روبرت عن مكانه مُفسحًا لها الطريق. كان يبتسم لماري، وكلاهما أنصت إلى وقع الخطى المتلاشية غير المنتظمة على أرضية الرواق. فُتح باب ثم أغلق، فعمّ سكون تام.

يرتدي روبرت اللباس نفسه الذي رأياه فيه ليلة البارحة، والرائحة النفاثة نفسها لما بعد الحلاقة. الظلّ لعب لعبته فجعله في مكانه مربوعًا أكثر مما كان عليه. واضعًا يديه خلف ظهره، متقدمًا بضع خطوات نحو ماري، استفسر منها بأدب جمّ إن كانت وكولين قد ارتاحا في نومهما؟ بعدها تتابعت سلسلة من المجاملات، إذ أطرت ماري على جناحهما، والمنظر الذي تطلّ عليه الشرفة، فقال روبرت إن المنزل كله كان يومًا ما يعود إلى جدّه، وإنه عندما ورثه قسّمه إلى خمسة أجنحة فخمة، لكنه بات الآن يعيش بتكلفة أعلى ممّا يجنيه. مدّ ذراعًا مُشيرًا إلى جزيرة المقبرة، وقال إن جده وأباه مدفونان هناك، جنبًا إلى جنب. ثم قالت ماري، مشيرةً إلى عباءة النوم القطنية، إنها لحظة رأتها عرفت أنها لا بدّ أن ترتديها. أمسك يدها لتجتاز مدخل

الشرفة ثم رافقها إلى طاولة الطعام الضخمة، مُصرًّا عليها أن تشرب كأس شمبانيا معه. ثمّة أربعة كؤوس طُوليّة عميقة بحوافّ ورديّة الظلال، رُتبت جميعًا حول قنّينة شراب على صينية فضيّة. حينها فقط ظهر كولين خارجًا من باب غرفة النوم في أبعد ركن من الرواق، وسار نحوهما. وقفا عند زاوية الطاولة يرقُبانه قادمًا.

كولين كان قد جدّد نفسه. غسل شعره بالشامبو وحلق ذقنه. ملابسه مغسولة ومكويّة. اعتُني بقميصه الأبيض عنايةً خاصة، فلاءَمَهُ كما لم يحدث من قبل. بنطاله الأسود رصّ على قدميه مثل سروال مطّاط. سار نحوهما ببطء، بابتسامة تنمّ عن خجل، واعيًا إلى أنهما يرقبانه. لفائف خصلات شعره دكناء وتلمع تحت الثريّات.

"تبدو تامّ العافية" قال روبرت بينما ما زالت أمام كولين بضعة أقدام ليقطعها، ثم أضاف بعفوية "مثل ملاك."

ماري مبتسمة. انبعثت من المطبخ قرقعة صحون. أعادت ماري جملة روبرت بنعومة، ضاغطة على كل كلمة "تبدو... تام... العافية" ثم تناولت يده. ضحك كولين.

نزع روبوت سُدادة القنينة، وبينما الرغوة البيضاء تفيض من عنق الزجاجة الضيّق، التفت ونادى كارولين بصوت حاد. ظهرت مباشرةً عند أحد الأبواب البيضاء، ثم أخذت مكانها واقفة جوار روبرت، مواجهةً الضيفَين. وما إن رفعوا كؤوسهم حتى قالت كارولين بهدوء "في صحّة كولين وماري" ثم أفرغت كأسها في جوفها بجرعات سريعة، وسارت عائدة إلى المطبخ.

استأذنَت ماري منهما لتغيب بعض الوقت. وما إن أُغلق البابان في

أوّل الرواق وآخره، حتى عاودَ روبرت ملأ كأس كولين واقتاده بلُطف – ماسكًا مرفقه – خلال قِطَع الأثاث، حتى وصلا بُقعة يمكنهما انطلاقًا منها التجوّل في بقيّة الرواق دون أي عائق. ودون أن يترُك تمامًا مرفق كولين، راح روبرت يُضيء له بعض الجوانب من مقتنيات جدّه ووالده: فصانعُ خزائن شهير هو مَن صمّم وصنعَ طاولة الرُّكن ذات المرصّعات النادرة، تلك التي لا تقدّر بثمن. توقفا أمامها بعض الوقت، وأجرى روبرت راحة كفه على سطحها، قائلًا إنّ صانع الخزائن الشّهير قدّمها إلى جدّه امتنانًا لنصيحة قانونية قدّمها إليه، فأنقذت سمعة ابنته من الضياع. وكيف أن اللوحات القاتمة التي جمعوها بدءًا من جدّه، ترتبط بأساليب ومدارس فنية عريقة، وكيف أوضح له والده أن بعض ضربات الرّيَش عليها لا يمكن أن تكون إلا من صَنيع أحد عظماء الفنّ الذين حاولوا الرسم للكهّان. هذه – رفع روبرت مجسّمًا طبق الأصل لكاتدرائية شهيرة، صغيرًا رماديًّا – صُبّ من رصاص جُلب من منجم لا وجود لمثله على الأرض سوى في سويسرا. كان على كولين أن يحمل الكاتدرائية بكلتا يديه. عرف كولين أن جدّ روبرت ملكَ أكثر من حصّة من المنجم الذي استُنفد خلال فترة قصيرة، لكنه حوى رصاصًا لا شبيه له في العالم بأسره. جدّه هو من كلّفَ بصناعة التمثال الصغير باستخدام آخر موجودات الرّصاص المستخرج من المنجم. ثم مضيا، يد روبرت ما زالت على مرفق كولين، لكنها لا تجذبه. هذا هو ختْم جدّي، وتعود إليه أيضًا كؤوس الأوبرا تلك، التي استخدمها الوالد أيضًا والتي بوجودها شَهِدَ الرّجلان العروض الأولى لأوبرا كذا – أو العروض ذات الأداء التاريخي الذي لا ينسى لأوبرا كذا – وراح يعدد أكثر من أوبرا وسبرانو وتينور. يومئ كولين، وطرح عليه –

أقلّ ما أمكنه بدايةً – أسئلة مثيرة. لكن لم يكن ذاك ضرورة، فروبرت قاد كولين إلى خزانة كتب محفورة من الخشب الأحمر. إنها تحوي روايات الجدّ والوالد المفضلة. كل هذه الكتب هي طبعات أولى وحوت شعارًا خاصًّا ببائع كتب مميّز شهير. هل يعرف كولين أين هو متجر الكتب هذا؟ قال كولين إنه سمع عن المكان. قرّبه روبرت من خوان يقع لصق جدار فاصل بين نافذتين. وضع روبرت كأسه هناك، وترك يداه تتهدلان على جانبيه. وقف صامتًا، حانيًا رأسه كأنه في صلاة. احترامًا له، وقف كولين على بُعد عدّة خطواته منه، متأمّلًا الأغراض التي تقترح أن تلعب معها إحدى ألعاب الذاكرة التي دائمًا ما تُجرى في حفلات الأطفال.

تنحنح روبرت وقال "هذه أشياء اعتاد والدي استخدامها يوميًّا" ثم سكت. راقبه كولين بقلق. "أشياء صغيرة" وسكت مرّة أخرى. جمع كولين شعره بأصابعه بينما راح روبرت يحدّق مليًّا في الفراشي والغلايين وشفرات الحلاقة.

عندما تابعا أخيرًا جولتهما، قال كولين باستخفاف "إنّ والدك شخصيّة مهمة بالنسبة لك" كانا قد عادا مرة أخرى إلى طاولة الطعام، عند قنينة الشمبانيا التي أفرغها روبرت في كأسَيهما. أشار روبرت إلى طولين بالجلوس على أحد المقاعد الجلديّة، لكنه هو بقي واقفًا بطريقة دفعت كولين إلى لفّ رأسه في زاوية غير مريحة نحو ضوء الثريا كي يرى وجهه.

اكتسب روبرت في هذه الأثناء نبرةَ من يشرح أمرًا بالغ الوضوح لطفل "والدي ووالد والدي فَهِمَا نفسيهما بوضوح كبير. كانا رجلين حقيقيين، فخورين بجنسهما الذكوري. النساء فهمنهما أيضًا" أفرغ

روبرت كأسه في جوفه وتابع "لم يكن ثمّة أي التباس".

"فعلت النساء ما أُمرن أن يفعلن" قال كولين، محدقًا من بقعة الضوء.

تحرّك روبرت حركة بسيطة نحو كولين وقال "الرجال الآن يشكّون في أنفسهم، يكرهون أنفسهم، أكثر مما يكره بعضهم بعضا. النساء يعاملن الرجال كأنهم أطفال، لأنهن لا يأخذونهم على محمل الجدّ" جلس روبرت على ذراع الكرسي، وأراح يده على كتف كولين. ثم قَرّ صوته "لكنهن يعشقن الرجال. مهما كان الذي يعتقدن أنّهن يحببنه، إنهن مفتونات بالقوّة والعُنف والطاقة في الرجال. هذا أمر في أعماق أذهانهن. انظر إلى كمّ النساء اللواتي ينجذبن إلى رجل ناجح. لو كان كلامي خاطئًا لخرجت النساء في تظاهرات ضد الحروب. لكنهن، عوضًا عن ذلك، يدفعن رجالهن إلى القتال. دُعاة السلام والمعارضين دائمًا هم من الرجال. ورغم أنهن يكرهن أنفسهن إذا شعرن بذلك، فإن النساء يشتهين أن يحكمهن الرجال. هذا أمر مغروس هناك في أعمق أعماقهن. لكنهن يكذبن على أنفسهن، يتحدثن عن الحرية فيما يحلمن بالعبودية". كان روبرت يدلّك كتف كولين بلُطف أثناء حديثه. رشف كولين من كأس الشمبانيا وتابع تحديقه إلى الأمام. اكتسب صوت روبرت الآن نغمة التكرار، مثل طفل أمام جدول ضرب. "العالم هو ما يشكّل عقول الناس، والرجال هم من شكّلوا العالم. لهذا فإن عقول النساء شكّلها الرجال. منذ طفولتهن يرين عالمًا بناه الرّجال. الآن تكذب النساء على أنفسهن، ولهذا فإنّك تجد التباسًا وتعاسةً في كل مكان. لم يكن الوضع هكذا أيّام جدي. أشياءه البسيطة الصغيرة تذكرني بذلك".

تنحنح كولين "هناك مطالبات بحقّ اقتراع النساء أيام جدك. ولست أفهم ما الذي يزعجك. فالرجال لا يزالون يحكمون العالم".
ضحك روبرت باستخفاف "لكن يا للسوء. إنهن لا يؤمنّ بأنفسهن كما الرجال".
رائحة الثوم واللحم المقلي راحت تنتشر في المكان. صدر من معدة كولين قرقرةٌ طويلة وبعيدة، مثل صوت يأتي من سماعة هاتف، مال إلى الأمام متخلّصًا من يد روبرت "إذًا" قال بينما ينهض "هذا متحف منذور للأيام الخوالي الجيّدة" كان أسلوبه دمثًا لكن نبرته متكلّفة.
نهض روبرت أيضًا. قسمات وجهه الهندسية تعمّقت، وباتت ابتسامته كابية وثابتة. التفت كولين بجذعه لحظة كي يضع من يده كأس الشمبانيا على ذراع الكرسي، وما إن اعتدل جذعه حتى عاجله روبرت بضربة من جُمعه في البطن، ضربة رخوة وسهلة، كانت لتبدو مرحة، لولا أنها أفرغت رئتَي كولين من الهواء، فانطوى على نفسه أرضًا عند قدمي روبرت حيث تلوّى، وأصدر عدّة ضحكات ضوضائيّة من آخر حلقه، بينما يصارع لالتقاط أنفاسه. حمل روبرت الكأسين الفارغين إلى الطاولة. عندما عاد، ساعد كولين وأنهضه على قدميه. ثم دفعه للركوع والاستقامة عدّة مرّات. أخيرًا ابتعد كولين عنه وجال عبر الرواق آخذًا أنفاسًا غزيرة. ثم استلّ من جيبه منديلًا ربّت به برفق عينيه، وحدج روبرت بعينين محتقنتين خلال قطع الأثاث، بينما الأخير كان قد أشعل سيجارة وراح يسير نحو باب المطبخ. وقبل أن يصل إلى وجهته، التفت وغمز لكولين.

اتّخذ كولين مجلسه في أحد أركان الرّواق، وراح يراقب ماري تساعد

كارولين في إعداد طاولة الطعام. أرسلت له ماري نظرات قلقة بين حين وآخر. مرّة عبرَت الرّواق واعتصرت كفّه. لم يظهر روبرت مجددًا حتى وُضعت أوّل طبخة على الطاولة. غيّر ملابسه مرتديًا بدلة بلون القشدة الشاحبة، مع ربطة عنق رفيعة سوداء ساتانيّة. تناولوا حساءً صافيًا، وشرائح لحم، وسلطة خضراء وأرغفة. ثمّة قنّينتا نبيذ أحمر أيضًا. جلسوا جميعًا متقاربين حول أحد طرفَي الطاولة، كارولين وكولين في جهة، وماري وروبرت في الجهة المقابلة. جوابًا على أسئلة روبرت، راحت ماري تتحدث عن ابنَيها. ابنتها ذات العشر سنوات اختيرت أخيرًا ضمن فريق المدرسة الكرويّ، لكنّ الأولاد بكلّ وحشية اعترضوها في أوّل مباراتين حتى رقدت أسبوعًا كاملًا في الفراش. ثم قصّت شعرها في المباراة التالية كي تتجنب الاضطهاد، فأحرزت هدفًا في مرماهم. أمّا ابنها، الأصغر من البنت بسنتين ونصف، يستطيع قطع مضمار الجري الرياضيّ المحلّي خلال أقل من تسعين ثانية. عندما انتهت من حديثها كله، أومأ روبرت إلى نفسه ثم مال بتركيزه كلّه إلى طعامه.
عمّ صمتٌ طويل في أوج تناولهم الطعام، لا تقطعه سوى قرقعة الملاعق على الصحون. ثم سألت كارولين بتوتّر واضح سؤالًا معقّدًا عن مدارس الأطفال، ما دفع ماري للإذعان مرة أخرى فراحت تتحدث عن آخر ما طُبّق من تشريعات، وفشَل حركة إصلاح التعليم. وعندما أدارت الكلام نحو كولين راجيةً منه مساعدتها، شارك بأقصر الجمل الممكنة، وعندما مال روبرت على الطاولة، لمس كفّ كولين وأشار إلى كأسه شبه الفارغة، فيما نظرَتْه كانت تتجاوز رأس كارولين إلى خزانة ملآنة بالكتب والمجلات. تكلّمت ماري فجأة معتذرة عن أحاديثها

الطويلة، وبدا أن في صوتها شيئًا من التردّد. ابتسم روبرت لها وتناول يدها، وفي هذه الأثناء أرسل كارولين إلى المطبخ لإعداد القهوة.

ما زال يمسك يد ماري حين التفت نحو كولين وشمله بابتسامته.

"عيّنتُ مديرًا جديدًا يبدأ العمل الليلة في حانتي" ثم رفع كأسه "في صحّة مديري الجديد!"

"في صحّة مديرك الجديد!" قالت ماري "لكن ما الذي حلّ بمديرك السابق؟"

تناول كولين كأس شرابه لكنه لم يرفعه. راقبه روبرت بتمعّن، وحين رشف كولين من كأسه أخيرًا، قال روبرت وكأنه يلقّن قواعد الدماثة شخصًا ساذجًا "في صحّة مدير روبرت الجديد!" ثم ملأ كأس كولين مجدّدًا والتفت نحو ماري. "المدير السابق أسنّ، والآن يخوض مشاكل مع الشرطة. المدير الجديد..." ثم مطّ شفتيه وأشاح عينيه سريعًا لتستقرّا على كولين، وشكّل بسبّابته وإبهامه دائرةً صغيرة مُحكمة، متابعًا القول "إنه يعرف جيّدًا كيف يتعامل مع المشاكل. يُدرك متى يتدخّل. لا يترك لأحد فرصةً لاستغلاله..." بادل كولين روبرتَ التحديق هنيهة.

"يبدو أنه رجلك المناسب" قالت ماري بأدب.

أومأ روبرت مبتسمًا ابتسامة انتصار "رجلي المناسب" قال وفكّ قبضته عن يدها.

عندما عادت كارولين بالقهوة، وجدت كولين متمدّدًا على أحد الكراسي الطويلة المعدّة للاضطجاع في الغرفة، بينما روبرت وماري ما زالا يجلسان إلى طاولة الطعام ويتبادلان الحديث بخفوت. جلبت لكولين كوبَه وجلست جواره. جفل منها بينما تحاول الجلوس مستندة

إلى ركبته. أرسلت نظرة سريعة إلى روبرت، ثم شرعت تستفهم من كولين حول عمله وأسرته، لكن من خلال الطريقة التي جالت بها عيناها في وجه كولين أثناء حديثه، واستعدادها لطرح أسئلة جديدة، بدا جليًّا أنها لم تكن تنصت إليه. بل بدت متعطشة لمسألة الحوار وتبادل الأحاديث أكثر منها لما تحتويه. كانت ترفع وجهها نحوه كأنّها تتحمّم بكلماته. رغم ذلك، أو ربما لهذا السبب تحديدًا، تحدث كولين باسترسال، بدءًا عن فشله في أن يصنع من نفسه مغنيًا، ثم عن عمله الذي يعتاش منه، ثم عن عائلته. "بعدها توفي والدي" قال خاتمًا حديثه "وتزوّجت أمي مجددًا".

كانت كارولين تعدّ سؤالًا آخر، لكنها تردّدت. خلفها، إلى طاولة الطعام، راحت ماري تتثاءب بينما تنهض. قالت كارولين "هل لكَ أن ..." لكنّها توقفت، وأعادت صياغة ما أرادت قوله "أنتما عائدان إلى دياركما قريبًا كما أظن ..."

"الأسبوع القادم"

"هل لكَ أن تزورنا مرّة أخرى؟" ولمست يده. "هل تعدني أنك قادم مرّة أخرى؟"

كان كولين دمثًا وغامضًا في الوقت نفسه "أجل بالطبع"

لكن كارولين أصرّت "لا، إني أعني طلبي، ذلك أمرٌ مهمّ" كانت ماري تسير نحوهما فيما روبرت واقفًا ينظر. همست كارولين له "لا أستطيع نزول الدرج"

انتصبت ماري أمامهما، لكنها عندما رأت أن كارولين تتحدّث همسًا، سارت بضعة أقدام نحو خزانة الكتب والتقطت منها مجلة. "ربما علينا المغادرة الآن ..." صاحت.

أومأ كولين بامتنان، وكان على وشك النهوض عندما تشبّثت كارولين بيده، وقالت بخفوت "لا أستطيع الخروج"

انضمّ روبرت إلى ماري عند خزانة الكتب، بينما هي تتأمّل صورة فوتوغرافية عريضة. رفعتها بين يديها. يظهر فيها رجل في شُرفة يدخّن سيجارة. كانت طباعة الفوتوغراف مضبّبةً قليلًا وغامضة الملامح، لقطة بعيدة مكبّرة عدّة مرّات. نظرَت إليها بضعة ثوان، ثم جذبها روبرت من يدها وأعادها إلى خزانة الكتب.

نهض كولين وكارولين، وفتح روبرت الباب مُشعلًا الأضواء فوق الدرج. كولين وماري شكرا روبرت وكارولين على ضيافتهما. ألقى روبرت على ماري تعليمات عن طريق الوصول إلى فندقهما.

"تذكّر ..." قالت كارولين لكولين، لكن بقيّة كلماتها قطعها إغلاق روبرت الباب. وبينما كانا ينزلان أوّل سربٍ من العتبات، سمعا صوتًا حادًّا كان يمكن أن يكون، كما قالت ماري لاحقًا، صوت ارتطام شيء بالأرض بقدر ما كان صوت صفعة قوية. وصلا أسفل الدرج، عبرا فناءً ضيّقًا، ثم سارا في شارع مظلم.

"والآن" قال كولين "أين الطريق؟"

- 7 -

خلال الأربعة أيام اللاحقة، لم يغادر كولين وماري الفندق سوى مرّة واحدة عندما عبرا الطريق المزدحمة نحو المقهى العائم، وكانت الشمس حينها قد أشرقت منذ ساعتين على طاولة اختاراها كانت شرفتهما تطلّ عليها. عدا ذلك، تناولا وجباتهما كلها داخل الفندق، في غرفة طعام ضيّقة، طاولاتها مغطّاة بشراشف بيضاء منشّاة، حيث كل شيء – حتى الطعام – مخطّط بانعكاسات صفراء وخضراء آتية من نوافذ ضوء ملوّنة. النزلاء الآخرون كانوا لطفاء وفضوليّين، يقارنون ملاحظاتهم حول الكنائس الأقل شُهرة، والمذابح ذات الخشب المحفور التي صنعها عاصون انشقّوا عن مدارسهم الدينية الشهيرة، والمطاعم التي يرتادها المحليّون.

عائدان من المنزل إلى الفندق، كفّ واحدهما في كفّ الآخر طول الطريق. تلك الليلة، ناما في سرير واحد. استيقظا متفاجئين أنهما متحاضنين. مضاجعتهما أيضًا أدهشتهما روعتها، ومتعتها الحميمة

واحتواءها، السّاحقة حدّ الوجع، وأحاسيسها المثيرة الرّاعشة. قالا تلك الليلة في الشرفة إنّهما تذكّرا إحساس لقاءهما الأول قبل سبع سنوات مضت. كيف نسيا كل هذا بسهولة جمّة؟ انتهيا في أقل من عشر دقائق، ثم استلقيا وجهًا لوجه مدّة طويلة، مندهشين ومتأثّرين. ذهبا الحمّام معًا. وقفا تحت صنبور الاستحمام يتضاحكان، ورغّا واحدهما جسد الآخر بالصابون. بكامل لمعان نظافتهما وفوحان عطورهما، دخلا سريرهما مجدّدًا وتبادلا الحبّ حتى الظهر. الجوع قادهما نزولًا إلى غرفة طعام الفندق الضيّقة، حيث أحاديث النزلاء الجديّة دفعتهما إلى موجات من الضحك المكبوت مثل أطفال المدارس. تشاركا تناول ثلاثة أطباق رئيسة من الطعام، وثلاثة ليترات من النبيذ. كفّا واحدهما ممدودة للآخر عبر الطاولة، وراحا يتحدثان عن الوالدين والطفولة كأنهما التقيا توًّا. النزلاء يرسلون نظرات خاطفة نحوهما وإيماءات استحسان. وبعد غياب طال ثلاث ساعات ونصف عن غرفتهما، عادا إلى فراشهما الذي بدلت شراشفه وأغطية وسائده بأخرى جديدة. وبينما كانا يتلاطفان، ناما. وعندما استيقظا في أوّل المساء، أعادا التجربة القصيرة شديدة الإثارة التي عاشاها صباحًا. استحمّا مرة أخرى، هذه المرة دون صابون، وأصخيا السمع بابتهاج مشترك إلى الرجل أسفلهما، الذي يستحمّ ويغني صادحًا بنغماته "الرجل للمرأة والمرأة للرجل..." جُلبت لهما المشهيّات في صينية واسعة إلى الغرفة: شرائح ليمون قُطعت بدقة وعناية وصُفّت في طبق فضّي، ومكعّبات ثلج كوّمت في قدح فضّي أيضًا. أخذا شرابهما إلى الشرفة حيث مالا متّكئين إلى الجدار المخطّط بالنباتات المتسلّقة، يتبادلان دُخَيْنَة ماريوانا، ويراقبان غروب الشمس ومرور العابرين.

وعلى هذا المنوال، مع بعض الانحرافات البسيطة، أمضيا ثلاثة أيام ولياليها. ورغم أنهما حدّقا إلى الكنيسة الضخمة نفسها عبر قناة المياه، وتبادلا الأسماء إياها لمطاعم نصحهما بها أصدقاؤهما في ديارهما، أو استحضرا في خضم حرّ منتصف النهار ظلال شارع معيّن بارد يجري على امتداد قناة مائية مهملة، فإنهما لم يقوما بأيّ محاولة جادّة لمغادرة الفندق. خلال منتصف نهار اليوم الثاني، ارتديا ملابسهما استعدادًا للخروج في جولة طويلة، لكنهما استلقيا على السرير بغتة، يجذب واحدهما ملابس الآخر وينزعها، ويضحكان على حالهما الميؤوس منه. جلسا في الشرفة في وقت متأخر من الليل، مع قناني نبيذ، فيما أضواء شارة النيون تحاول طمس النجوم، وتحدّثا مجددًا حول الطفولة، ورَوَيَا أحداثًا لم تخطر إلى بالهما من قبل تذكّرها، مشكّلَين نظريات حول الماضي وحول الذاكرة نفسها؛ كان يترك أحدهما الآخر يتحدث ويتحدث ساعة تقريبًا دون أن يقاطعه. احتفلا بفهمهما المشترك للحياة، وبحقيقة أنهما رغم اعتياد أحدهما الآخر، فإنهما قادران على خلق شغفهما من جديد. هنآ نفسيهما. تساءلا عن هذا الشغف وحاولا وصفه وتفسيره، إنه يعني الآن أكثر ممّا عناه قبل سبع سنوات. عدّدا أصدقاءهما، المقترنين منهم بزواج أو دونه، ما كان أحدهم ناجحًا في علاقة حبّه نجاحهما معًا. لم يأتيا على ذكر إقامتهما في منزل روبرت وكارولين. كل ما ذكراه كان إشارات عابرة مقتضبة "في طريق العودة من منزل روبرت، فكّرت أنه..." أو "كنت أتأمّل النجوم من تلك الشرفة..."

انتقل حديثهما إلى تأمّل الرّعشة الجنسيّة، وهل يختبر الرجال والنساء شعورًا واحدًا خلالها أم شعورًا مختلفًا. اتّفقا أن كلّ جنسٍ

يختبر شعورًا مختلفًا جذريًّا عن الآخر، لكن هل سبب ذلك هو أنّ هذا الشعور صنيعةٌ ثقافيّة؟ قال كولين إنه لطالما حسد النساء على شعورهن وقت النشوة، وأنه مرّ بأوقات شعر خلالها بفراغٍ مُوجع، قريب من الشبق، بين إسته وكيس الصّفن. وظنّ ذلك أقرب ما يكون لما تشعر به النساء عندما تشتعل شهوتهن. فَصّلَت ماري، وكلاهما سخر من ذلك، خبرًا قرأته في الصحيفة عن تجربة تتغيّا الإجابة عن سؤالهما ذاك تحديدًا: هل يشعر الرجال والنساء بالإحساس ذاته؟ متطوعون من كلا الجنسين قُدّمَت لهم قوائم من مئتي عِبارةٍ وصفةٍ وحال، وسُئلوا أن يحيطوا بالدوائر عشر اختيارات تصف بدقّة ما يشعرون به في النشوة. بينما سُئلت مجموعة أخرى أن تقرأ الإجابات وتحدّد وفقًا لها هل المُجيبُ رجلٌ أم امرأة. وبما أن التخمينات شملت الصّواب قدرَ ما شملت الخطأ، فقد استنتجوا أن الرّجال والنساء يشعران بالنشوة نفسها. ثم انتقلا، بشكل يتعذّر اجتنابه، إلى سياسات الجنس، فتحدثا كما فعلا مرّات عدّة في السابق، عن المجتمع الذكوري. قالت ماري كيف أنّ ذلك هو المبدأ الأقوى والأوحد الذي ينتظم حياة الفرد والمؤسسات. بينما جادل كولين، كما هي عادته، في أن هيمنة الطبقة الواحدة هو ما ينتظمهما. هزّت ماري رأسها، غير أنهما حاربا كي يعثرا على أرض مشتركة لهما.

قادهما الحديث عَودًا إلى والدَي كلٍّ منهما، وما الصفات التي ورثاها عن أبوَيهما وتلك التي عن والدتيهما، وكيف تنزّلت علاقة الأب والأم إلى حيواتهما وأثّرت في علاقاتهما الشخصية. تكررت كلمة "علاقة" على شفاههما كثيرًا حتى ملّاها، لكنهما اتفقا أنه لا وجود لاستعاضة عنها

مناسبة. تحدّثت ماري عن نفسها كأمّ، أما كولين فتابع حديثها كأب مستعار لطفليها. الفرضيات كلها، والأشجان، والذكريات، قادها كلّ واحد منهما لخدمة نظريّات قيد التشكّل حول شخصيّته وشخصيّة الآخر، وكأنّه وجب عليهما – وقد وجدا نفسيهما يولدان من جديد عبرَ شغفٍ فاجأهما ببعضهما – أن يعيد واحدهما اختراع ذاته، أن يسمّي نفسه وَليدًا، أو شخصًا مختلفًا: دَخيلًا على رواية قد عُنوِنَت قبلًا. يعودان بين فينة وأخرى إلى مناقشة التقدّم في العمر؛ أو تلك اللحظة التي اكتشف عندها واحدهما (أم أن الأمر يُكتشَف تدريجيًّا؟) أنه لم يعد ذاك الناضج الأكثر يفاعةً بين من يعرفهم، أن جسده بات أثقل حركةً، وأن المتغيّرات الحادثة التي كان يتكيّف تلقائيًّا معها لم يعد من الممكن تجاهلها، بل لا بدّ من الإمعان في مراقبتها والتمرّن عليها بوعي. اتفقا أنه، رغم رحلتهما هذه الأشبه باللحن الرعويّ السّعيد الذي أحياهما، فإنهما لن يخدعا نفسيهما، فهما يتقدّمان في العمر ويومًا ما سيموتان، وأن هذه الانطباعات الناضجة – في ظنّهما – زادت شغفهما الجديد عُمقًا.

اتفاقهما ذاك، في الحقيقة، سمح لهما بتناول كثير من المساءل وتجاوزها بصبرٍ كبير. تحادثا طول الوقت بصوت خفيض في الشرفة حتى الرابعة فجرًا: بينهما جِراب الماريوانا الأفعوانيّ، وعُلَب أوراق اللفّ من نوع ريزلا، وقناني النبيذ الفارغة عند أقدامهما – اتفاقهما لم ينتُج ببساطة عن حالتهما الذهنيّة من احترام أحدهما الآخر، بل أيضًا من مزاجهما اللغويّ البلاغيّ الذي شكّل أداةً للتقدّم في الحديث. إن الادّعاء المسكوت عنه خلال محادثاتهما التي جرت كلها عن مواضيع

مهمّة (وهذه الأخيرة، بالطبع، تقلّ مع مرور السنوات) هو أن أفضل طريقة لاكتناه موضوع ما يكون باتخاذ موقفٍ معارضٍ له، حتى لو لم يكن ذاك الموقف هو حقيقة ما يتخذه أحدهما تجاه الأمر إيّاه. إن الصّدق والمصارحة بالرأي الشخصيّ هو أقلّ أهميّة من معارضة رأي الآخر. الفكرة – إن كانت حقًّا فكرة وليست عادة من العادات الذهنيّة – تقوم على أن الخصم، جرّاء خوفه من المعارضة، يذهب عنيفًا في الجدال، مثل علماء يطرحون ابتكاراتهم لأقرانهم. ما كان يميل إلى الحدوث، في حالة كولين وماري على الأقل، هو أن المواضيع لا تنصقل وتُجلى إلا بتكرار الدفاع عن الرّأي فيها، مُشبعةً بالنّزق، أو مدفوعة بالقوّة للاستفاضة حدّ اللغو في هوامشها الفارغة. والآن، مدفوعَين بتشجيعٍ صادقٍ متبادل، يتقافزان مثل طفلين حول بركٍ صخريّة جوار البحر، من موضوع إلى آخر.

لكنهما، رغم أحاديثهما وتحليلاتهما التي امتدّت لتتناول أدوات النقاش نفسها وآليّاته، لم يعرّجا على سبب إحياء شغفهما من جديد. إن مناقشاتهما، في مضمونها، لم تكن أكثر من احتفاء، تمامًا مثل ممارستهما الحب، ففي الحالتين عاشا في لُبّ اللحظة. تشبّثا ببعضهما بإحكام في النقاش كما في الجنس. تضاحكا أثناء الاستحمام من فكرة أن يعقِدا أيديهما ثم يرميان معًا المفاتيح. هذه الفكرة أشعلتهما. ودون إضاعة الوقت في تناول الفوَط للتجفيف أو حتى إغلاق صنبور المياه، جريا إلى الفراش ليغوصا أكثر إلى الأعماق. اتّخذا عادة أن يهمس أحدهما في أذن الآخر أثناء المعاشرة، قصصًا تأتي من كل مكان، من العدم، قصصًا دفعتهما للتنهّد حينًا والتضاحك

أحيانًا أخرى بشأن اليأس من نسيانها، قصصًا فتنت مستمعها حدّ السّكوت، وأخرى جديرة بأن يُبتَزّ قائلها بها مدى حياته ويُعيّر بسببها. همست ماري بنيّتها أن تأتي بجرّاحٍ يبتر لها ذراعَي كولين ورجليه. ولسوف تُبقيه بعدها في غرفة من منزلها، وتستخدمها حصرًا للجنس، وقد تُعِيره من وقتٍ لآخر إلى بعض صديقاتها. أمّا كولين فقد ابتكر لماري آلة كبيرة معقّدة، معدنيّة الأجزاء، مدهونة بالأحمر البرّاق وتُدار بالكهرباء، لها مكابس ولوحة تحكّم، وأحزمة وأقراص، تُصدر أنينًا خافتًا حين تعمل – راح كولين يئنّ في أذن ماري – وما إن تلتصق ماري بالآلة وتُعقَد أحزمتها حولها، وتتلاءم أنابيبها حول جسدها وداخله، تُطعمه وتُفرغه، تنيكُ الآلةُ ماري، ليس لساعات أو أسابيع فقط، بل سنوات، دون انقطاع، بقيّة حياتها حتى موتها، وإلى ما بعد موتها، حتى يقوم كولين نفسه أو محامِيه بإيقافها.

وبعد بعض الوقت، ما إن انتهيا من الاستحمام والتعطُّر، جلسا يحتسيان الشراب في الشّرفة، تتجاوز نظراتهما أحواض الزهور إلى السيّاح العابرين في الأسفل. الآن، قصصهما التي تهامسا بها باتت دون طعم، وسخيفة، ولم يتناولاها بالحديث جديًّا.

خلال الليالي الدافئة، في سرير مُفرَدٍ ضيّق، بدا أن لاحتضان واحدهما الآخر مواصفات مميّزة: ففي حين تطوّق ماري عنق كولين بساعديها، فإن ذراعي كولين تضمّ خصرها، بينما سيقانهما تلتفّ بعضها ببعض. وخلال النهار، حين يبدو أن المواضيع كلها قد استُنزفت، وأنّ شغفهما قد أُنهك ولو مؤقّتًا، فإنهما يبقيان متقاربَين،

حتى لو شعرا أن دفء جسديهما المشترك يكاد يخنقهما، لكنهما لا يقويان على الابتعاد عن بعضهما دقيقة واحدة، وكأنهما يخشيان تلك العزلة التي تنتظر الواحد منهما، وتلك الظنّون الخاصّة، أن تُفسد ما يتبادلانه معًا من مشاعر.

لم تكن خشيةً لا أساس لها. ففي صباح اليوم الرابع نهضت ماري من النوم قبل كولين وانسحبت من السرير بهدوء جمّ. اغتسلت وارتدت ثيابها سريعًا، لم تكن تحرّكاتها في الغرفة مُختلَسة، لكنها في الوقت نفسه دقيقة وحذِرة. فتحت باب الغرفة بدفعةٍ ناعمة متناسقة، ليست الدفعة السريعة المعتادة بالمعصَم. وجدت الطقس في الخارج باردًا على غير المعتاد في الساعة العاشرة والنصف، وكان الهواء صافيًا صفاءً استثنائيًّا. أشعة الشمس السّاقطة تنْحَت الأشياء مبرزةً أدقّ تفاصيلها، وباعدت بعضها عن بعض بظلالٍ دكناء. عبرت ماري الرصيف إلى المقهى العائم واتّخذت فيه طاولة تقف بعيدًا عند السّياج، الطاولة الأقرب إلى المياه والأكثر إشباعًا بنور الشمس. رغم ذلك، فإن ذراعيها العاريين شعرا بالبرد، وارتعش جسدها قليلًا بينما ترتدي نظارتها الشمسية السوداء وتستدير باحثةً عن نادل. كانت الزائر الوحيد في المقهى، وربما أوّلهم هذا اليوم.

ظهرَ نادلٌ فَرَقَ ستارة خيوط الخرز التي تغطي مدْخلًا يقع قرب الرصيف، وألمح إلى أنّه رآها. خرج عن مجال رؤيتها بعض الوقت ثم عاود الظهور حاملًا صينيّة عليها كوبٌ يتصاعد منه بخار. عندما وضعه على طاولتها، أوضحَ بجَلِيّ الحركات أن هذه التّقدِمة مجّانًا من المقهى. رغم أنّ ماري كانت لتفضّل احتساء الشوكولاتة الحارة، فإنها

قبِلت القهوة السوداء بامتنان. ابتسم النادل واستدار بخفّة على عقبَيه. أزاحت ماري كرسيّها قليلًا إلى الداخل كي تستطيع رؤية شُرفة غرفتهما ومصاريع نوافذها. وليس بعيدًا عن قدميها، كان الماء يرتطم هادئًا بالإطارات المطاطية التي تحمي المقهى العائم من المراكب المعدنية عندما ترسو إلى الرصيف. خلال عشرة دقائق، وكأن حضورها قد شجّع الجميع، احتلّ الزوّار عددًا من الطاولات، فانضمّ إلى نادلها نادلٌ آخر لمساعدته، فباتا مشغولَين دومًا .

احتست الشوكولاتة الحارة وراحت تنظر عبر القناة المائية إلى الكنيسة العظيمة القائمة في الجانب الآخر، مُحاطةً ببيوت متلاصقة. تلتقطُ نوافذُ السيّارات العابرة جوار رصيف الميناء، في الجهة المقابلة، أشعّة شمس الصّباح لتعكسها، فتنطلق عبر المياه إلى ماري. الجهة المقابلة بعيدة بما يمنع ماري عن تمييز الناس هناك. ثمّ، ما إن وضعت كوبها الفارغ عن يدها وأجالت النّظر حولها، رأت كولين بكامل ثيابه ينتصب واقفًا في الشّرفة، يبتسم لها من مسافة ستين قدمًا تقريبًا. أجابته ماري بابتسامة حانية. لكن عندما تحرّك كولين في مكانه قليلًا، كأنه يخطو حول شيءٍ يقف في طريقه، تجمّدت ابتسامتها، ثمّ بهتت. أطرقَت رأسَها ناظرةً إلى الأرض محتارة، ثم رفعت نظرها من جديد نحو المياه. ثمّة قاربا تجديف عبَرَا المياه، والمجدّفان يناديان بعضهما في حماس. رمت ماري نظرها إلى الشرفة وابتسمت مجددًا. ذهب كولين إلى الداخل، فحظيَت ببضع ثوانٍ لنفسها قبل أن ينضمّ إليها. كانت تحدّق في البُعد دون أن ترى حقًّا رصيف الميناء، برأسٍ مائلة كأنها تصارع ذاكرتها دون نجاحٍ يُذكَر. عندما جاء كولين، قبّلا

بعضهما وجلس قريبًا منها، وبقيا هكذا ساعتين.
ثم انطوى اليوم على ما انطوت عليه الأيام الثلاثة السابقة تمامًا؛ غادرا المقهى العائم إلى غرفتهما، وكانت الخادمة قد انتهت من ترتيبها توًّا وإعدادها. قابلاها أثناء مغادرتها الغرفة، تحت ذراعها حزمة من الشراشف المتسخة وأغطية الوسائد، وتحمل بالأخرى سلّة مهملات نصف ملأى بمناديل ورقيّة مستعملة، وقُلامات أظافر قدمَي كولين. وكي يفسحوا لها الطريق لتعبر، كان عليهما أن يلتصقا ببعضهما إلى الجدار، وقد التفتا بوجهين خجلَين مُستَعيبَين إلى تحيّتها الصباحيّة المؤدبة. قضيا في السرير وقتًا أقلّ من ساعة، ثم ساعتين في تناول الغداء، ثم عادا إلى السرير، لكن هذه المرّة للنوم. تضاجعا عندما استيقظا، وبقيا مستلقيين بعض الوقت، ثم استحمّا وارتديا ملابسهما، وقضيا بقيّة المساء – قبل العشاء وبعده – جالسَين في الشّرفة. وخلال ذاك الوقت كلّه، بدت ماري مضطربة، وقد علّق كولين على هذا الشّأن أكثر من مرة. صرّحت أن ثمّة ما يُقلقها، هناك في باطن لا وعيها، أبعد من قدرتها للقبض عليه، وشبّهت الأمر بحُلمٍ شفيفٍ رآه المرء لكن يعجز عن استدعاء تفاصيله. اتّفقا على أنهما يعانيان من قلّة ممارسة الرياضة، ولذلك أعدّا الخطط ليلحقا بالقارب كي يعبر بهما البحيرة في اليوم التالي نحو شَريطٍ من اليابسة، حيث الشّطآن والبحر المفتوح. قادهما ذلك إلى تبادل الحديث مطوّلًا بسعادة غامرة، فللتوّ أنهيا دُخَيْنَة ماريوانا أخرى، عن السباحة، والطريقة التي يفضّلها كلّ واحد منهما فيها، وعن تماثل الأنهار نسبيًّا فيما بينها، وعن البحيرات والبِرَك والبحار، وعن الطبيعة الجاذبة الكامنة في المياه للناس: هل هي ذكرى مدفونة في العقل منذ أسلافنا

البيولوجيين البحريّين؟ الحديث عن الذاكرة دفع ماري للعبوس مجددًا. نقاشاتهما، بعدها، صارت مفكّكة، وذهبا إلى الفراش في وقتٍ أبكر من المعتاد، قبل منتصف الليل بقليل.

في الخامسة والنصف صباحًا، نهضت ماري بصيحة جزع، ربما كانت آخر سلسلة صيحات أطلقتها، وجلست منتصبة الظهر في السرير. أشعّة النهار الأولى تنفذ من خلال مصاريع النوافذ، وقطعة أو قطعتان شاحبتان من أثاث الغرفة باتتا واضحتين. من الغرفة جوارهما تناهى إليهما صوتُ تذمّر وإشعالٍ أضواء. ضمّت ماري ركبتيها إليها وراحت ترتجف.
بحدوث ذلك كلّه، كان كولين قد استيقظ تمامًا. مدّ يده ومسّد ظهرها "كابوس؟" سألها. انتفضت ماري مبتعدة عن لمساته، وشدّت ظهرها أكثر. وعندما لمسها مجددًا، هذه المرّة كتفها، جاذبًا إياها برفق كأنه يريد إعادتها للاستلقاء مجددًا، تخلصت من كفّه ونهضت عن الفراش.
جلس كولين، بينما ماري تقف عند رأس السرير تحدّق في وسادته الفارغة. ثمّة خطى تعبُر من غُرفة مجاورة، بابٌ يُفتَح، وقعُ أقدامٍ في الرّدهة انقطعَ فجأة، كأن السّائر أراد أن يُنصتَ لما يحدث. "ما الذي دهاك، ماري؟" قال كولين ومدّ يده ليمسّ يدها لكنها انكمشت بعيدًا عنه مُبقيةً عينيها عليه، فيهما نظرة مرتاعة وناءية، وكأنهما تشهدان وقوع كارثة ما من فوق هضبة. خلافًا لماري، كان كولين عاريًا، وارتعش بينما يتخبّط متلمّسًا مكان قميصه، ثم نهض واقفًا. واجها بعضهما عبر خلاء السرير. "لا بدّ أن أمرًا مفاجئًا أخافك" ثم سار لصق السرير

منعطفًا معه نحوها. أومأت له بالإيجاب، ثم سارت نحو النافذة الفرنسية المفضية إلى الشُرفة. الخطوات خارج غرفتها قد ابتعدت، ثم صوت باب يغلَق تناهى إليهما، وصريف نوابض سرير، وطقّةُ مفتاح إضاءة.

ارتدى كولين ملابسه بسرعة ثم لحق بها. رفعت له إصبعًا إلى شفتها عندما راح يطمئنها ببعض العبارات، ويطرح عليها الأسئلة في آن. أزاحت طاولةً منخفضة عن مكانها قليلًا، وأشارت إلى كولين أن يأتي ليقف حيث كانت. ما زال يطرح الأسئلة، وفي خضمّ ذلك سمح لها أن تموضعه حيث أرادت. ثم أدارته كي يواجه القناة المائية، يواجه القطعة التي ما زالت تحمل الليل من السماء. ثم حملت يده اليسرى وأراحتها على سور الشّرفة. أمّا يده اليُمنى فقد رفعتها إلى وجهه وأمرته أن يبقيها هناك. تراجعت بضع خطوات، "أنت وسيم جدًّا يا كولين"، همسَت.

طرأت له فكرة مفاجئة لكنها بسيطة، وبدا أنها أسرَته، فالتفت نحوها جادًّا يقول "أنت مستيقظة يا ماري، صحيح؟"

خطى نحوها، وهذه المرّة لم تجزع مبتعدةً عنه، بل مالت إليه وطوّقت عنُقه بساعديها، وراحت تقبّل وجهه ورأسه بتكرار من يفتقد الأمل.

"أنا مرتعبة جدًّا، أحبك وخائفة في الوقت نفسه" ثم انخرطت في البكاء. راح جسدها يتوتّر وينشدّ شيئًا فشيئًا ويرتجف حتى اصطكّت أسنانها بعضها ببعض، فلم تعد تستطيع الكلام.

"ما الأمر ماري؟" سألها مُسرعًا في الكلام، ثم أنهضها بقوّة. كانت تتشبّث بكُمّ قميصه محاولةً دفع يده عنها إلى الأسفل. "أنت لست مستيقظة تمام الاستيقاظ، أليس كذلك؟ لقد رأيتِ كابوسًا مزعجًا"

"المسني" قالت ماري أخيرًا، "المسني".

ابتعد كولين عنها قليلًا وأمسك كتفيها يخضّها، وغدا صوته أجشّ.

"لا بد لك أن تخبريني بما يحدث معك".

فجأة هدأت ماري، وسمحت له أن يقتادها إلى داخل الغرفة. وقفت تنظر إلى كولين فيما يسوّي الفراش. قالت له بينما يجلسان معًا في السّرير "آسفة، لقد أجفلتك" ثم قبّلته، آخذةً يده إلى ما بين فخذيها.

"ليس الآن"، قال كولين. "أخبريني بما يحدث"

أومأت له واستلقت جواره، وسّدت رأسها بذراعه. "أنا آسفة" قالت مرّة أخرى بعد عدّة دقائق.

"ما الذي حدث إذًا" قال لها بينما يتثاءب، لكن ماري لم تُجبه فورًا.

خفقَ قارب بنعومة أعلى القناة المائية في طريقه نحو رصيف الميناء. وما إن عبرَ حتى قالت ماري "صحوت من نومي مُدركةً أمرًا لو كنت أدركته أثناء النهار لما ارتعبتُ هكذا".

"أها..." قال كولين.

انتظرَت ماري. "ألا تريد معرفة ما هو؟" همهم كولين بالموافقة. مرّة أخرى، أطالت ماري سكوتها. "ما زلتِ مستيقظة؟"

"أجل"

"ذاك الفوتوغراف الذي رأيته عند روبرت، كان صورتك"

"أيّ فوتوغراف؟"

"رأيت فوتوغرافًا في بيت روبرت، لقد كانت الصورة لك"

"لي؟"

"لا بدّ أنها التُقطَت من ظهر قارب، من مسافة ما عن المقهى العائم"

نفضَ كولين رجلَيه بعنف. "لا أذكر رؤيتي شيئًا كذلك"، قال كولين

ثم سكت.
"أنت تسقط في النوم" قالت ماري. "حاول أن تبقى مستيقظًا لحظة".
"أنا صاح"
"في الأسفل، عندما كنتُ في المقهى العائم هذا الصّباح، ونظرت إليك واقفًا في الشُّرفة، لم أستطع أن أكتنه الارتباك الذي انتابني. ثم استيقظتُ وتذكرت. لقد رأيت ذاك الفوتوغراف عند روبرت. كولين؟ كولين؟"
كان يستلقي ساكنًا تمامًا، وتنفّسه المُنتظم بالكاد يُسمَع.

- 8 -

رغم أنه كان أحرّ يوم مرّ عليهما، وأن السماء فوقهما قريبة وسوداء أكثر منها مزرقّة. والبحر، عندما أفضت بهما إليه طريق المقاهي ومتاجر التذكارات، وجداه رماديًّا زَيتيًّا، تدفع صفحته من النسيم أنعمه، ناشرًا زبدًا فاقع البياض. وعلى الشاطئ، حيث تتكسّر موجات صغيرة على الرّمل ذي اللون القَشّي، ثمّة أطفال يلعبون ويصيحون، وأبعد منهم قليلًا في الماء هناك المعتاد من أذرعة السّابحين التي يرفعونها واحدة تلو أخرى. لكن أغلب الحشد المتوزّع يُمنةً ويُسرة في غشاوة الحرارة، جاء لأجل الشّمس نفسها. الأُسَر الكبيرة تُحيط جالسةً طاولاتٍ طُوليّة، تُعدّ غداءها من سلطة خضراء وقناني نبيذٍ دكناء. الرّجال الوحيدون، والنساء الوحيدات، تسطّحوا على فوَطٍ مفرودة، أجسادهم لوّنتها الزيوت. أجهزة المذياع الصغيرة تصدح، ومن حين لآخر، يطفو فوق ثرثرة الأطفال، صوتٌ يتناهى لأب ينادي ابنه.
سار كولين وماري مئتي ياردة على الرمل الملتهب الثقيل، متجاوزين

رجالًا وحيدين مع سجائرهم وكتبهم، وعشّاقًا يتبادلون الغزل، وعبرا خلال أُسَرٍ كبيرة يتواجد فيها الجدّان وأطفال تأذّوا من حرارة الجوّ في عرباتهم. كل ذلك المسير بحثًا عن مكان مناسب قُرب الماء. لكن على مسافة من الأطفال الذين يتراشقون المياه، ومن أقرب جهاز مذياع، ومن تلك الأُسْرة التي جلبت معها كلبين فرنسيّين نشطَين، وعلى مسافة لا تخترق الخصوصية من اثنين قد دهنا جسديهما بالزيوت واستلقيا كلّ واحد منهما فوق فوطة وردية، ومسافة أيضًا من سلّة المهملات الحجريّة التي تعلوها غيمة حشرات طائرة سوداء مزرقّة. كلّ مكان مرجّح كانت تعيبه على الأقل مثلبة واحدة. ثمّة مساحة فارغة مرجّحة لولا النفايات المتناثرة التي تتوسّطه. بعد خمس دقائق عادا إلى هذه المساحة وراحا يرفعان قوارير فارغة عن الأرض، وعُلَب، وأرغفة نصف مأكولة، إلى سلّة المهملات. غير أن رجلًا وابنه، شعرهما الأسود ملّسه الماء إلى الوراء تمامًا، خرجا راكضين من البحر وأصرّا على أن تبقى نفايات رحلتهما هذه في مكانها. كولين وماري تابعا سيرهما متّفقَين – هذه أوّل محادثة يجريانها بعد نزولهما من القارب – أنّ ما كانا يبحثان عنه حقًّا هو شاطئ له من الخصوصية ما لغرفتهما الفندقيّة.

استقرّا أخيرًا جوار فتاتين مراهقتين، حيث مجموعة صغيرة من الشبّان يحاولون إثارة إعجابهما باستعراض عضلاتهم على نحو أخرق، ورمي بعضهم الرمل في أعيُن بعض. كولين وماري فردا فوطتيهما جوار بعضهما، وخلعا ملابسهما مكتفيين بقطَع السباحة، وجلسا في مواجهة البحر. أمامهما عبَرَ قاربٌ يقطُرُ زلّاجةً يعلوها شاب (ركمجيًّا)، قطع مجال رؤيتهما، مع بعض النوارس، وصبيّ يحمل إلى

صدره علبةً صفيحيّة عُقدَت إلى رقبته، يبيع المثلّجات. اثنان من الشبّان راحا يلكمان ذراع ثالثهما بقوّة دفعت المراهقتين إلى الصراخ احتجاجًا. وفورًا، أقعى الرجال أرضًا مشكّلِين حول الفتاتين ما يشبه استدارة حذوة حصان، وقدّموا أنفسهم إليهما. كولين وماري، كلٌّ يعتصر كفّ الآخر بإحكام، محرّكين أصابعهما بين وقتٍ وآخر، مؤكّدَين لبعضهما أنّه رغم صمتهما فإنّ واحدهما واعٍ للآخر.

خلال الإفطار، أعادت ماري طرح قصّة الفوتوغراف. فعلت ذلك دون تقديم تخمينات أو تردّد، بل سردت الوقائع والحقائق بترتيب حدوثها وتكشّفها لها. وخلال ذلك كان كولين يومئ لها، ذاكرًا أنّه بات يستطيع الآن استدعاء ما حدث تلك الليلة، وسألها أن توضح له تفصيلًا أو اثنين، (هل ظهرت أحواض زهور إبرة الراعي في الصورة؟ وإلى أيّ جهة كانت تميل ظلالها؟ – لم تستطع أن تتذكّر). لكن، لا فرق، لقد تفاعل معها كما يجب أن يفعل دون أن يطرح أيّ خلاصات عامة. راح يومئ لها بينما يفرك عينيه في تعب. مضت ماري فأراحت يدها على ذراعه فسكبت إبريق الحليب بكوعها دون قصد. في الأعلى، عندما كانا يغيّران ملابسهما للذهاب إلى الشاطئ، جذبته إلى الفراش واحتضنته بقوّتها كاملة. قبّلَت وجهه وهدهدت رأسه بين نهديها، وقالت له المرّة تلو الأخرى كم تعشقه، كم هي مفتونة بجسده. قبضت بكفّيها على أليتيه العاريَتين وعصرتهما، فيما هو يرضع نهديها، ثمّ غاصَ بسبّابته داخلها. جلسَ على ركبتيه بعدها وتابع رضاعته وحفره فيها، فيما هي تهزّ وسطها إلى الأمام والخلف مردّدةً اسمه، ثم في ما يشبه نصف ضحكةٍ ونصف صرخة، قالت "لماذا من المخيف أن تعشق أحدًا إلى هذا الحد؟ لمَ هو مرعب؟" وهكذا، لم يمكثا في

الفراش متابعَين شأنهما. لقد ذكّرا بعضهما بوعدهما الذهاب إلى الشاطئ، وانفصلا كي يعدّا العدّة للذهاب.

نام كولين على بطنه، فيما ماري تجلس فارجةً ساقيها على أليتيه، تدهن ظهره بالزّيت. عيناه مغمضات، أراح وجنته على ظهر كفّه. حينها، أخبر ماري للمرّة الأولى كيف لكمَ روبرت بطنه. أعاد، دون زخرفة ولا إحالات لمشاعره، سوى مرّات قليلة، سردَ ما حدث: المحادثات كما يتذكرها، والأوضاع الجسديّة، وترتيب الأحداث كما جرت بدقّة. وفيما يتكلّم، دلّكت ماري ظهره منطلقةً من قاعدة عموده الفقري إلى أعلى، مرورًا بالعضلات الصغيرة التامّة التشكّل، وبإبهامين متقاربين واصلت تدليكها حتى وصلت إلى الوترين العنيدين الممتدّين عند قاعدة عنقه. "ذاك مؤلم،" قال كولين. فقالت ماري "هيّا تابع قصّتك، أنهِهَا". حينها، وصل في قصته إلى كارولين وما همسَت له به أثناء خروجهما من المنزل. خلفهما، راحت دمدمة الشبّان ترتفع بثباتٍ حتى ثارت في ضحكٍ صاخب، ضحك متوتّر، لكن جيّد السّريرة. ثمّ حادثت الفتاتان بعضهما بنعومة هامسة وسُرعة، وثار ضحكٌ آخر مجدّدًا لكن هذه المرّة أخفّ توتّرًا وحدّة. ومن خلفهم جميعًا، جاءت أصوات أمواج مهدّئة، تتكسّر خلال فتراتٍ متقاربة متساوية، وأمواج أخرى لها أصوات نعسانة مخدِّرة إذ تتكسّر في حركات وفترات لا يمكن قياسها ومعقّدة، كما يحدث دومًا مثلًا عندما تتدافع مسرعة دون تفسير. الشّمس متوهّجة مثل موسيقى صاخبة. كلمات كولين راحت تتداخل وتغدو مُبهمة قليلًا، فيما حركات ماري صارت أقلّ جديّة وإخلاصًا في تأدية غايتها، صارت رتيبة. "لقد سمعتها،" قالت ماري عندما أنهى كولين قصته.

"إنها أقرب ما تكون إلى السّجينة" قال كولين. ثم قال بنبرة أشدّ تأكيدًا "إنّهـا سَجينة".

"أعرف" قالت ماري. تركت كفّيها في مكانهما، تحيطان عُنق كولين في ارتخاء، وراحت تسرد عليه محادثتها مع كارولين في شرفة منزلها.

"لماذا لم تخبريني عن ذلك من قبل؟" قال عندما انتهت من الكلام.

ارتبكت ماري. "لماذا لم تخبرني أنت؟" ثمّ نزلت عنه، وبات كلّ منهما يحتلّ فوطته مرّة أخرى في مواجهة البحر.

بعد صمت طويل، قال كولين "ربما يضربها،" فأومأت ماري موافقة.

"لكن رغم ذلك..." ورفع حفنة رمل وتركها تتسرّب من بين أصابعه على قدمه "رغم ذلك بدت..." وأشاح بعيدًا بغموض.

"بدت راضية؟" قالت ماري بنبرة تأكيد. "الجميع يعلم كم تعشق النساء أن يُضرَبن"

"لا تعتدّي بنفسك إلى هذا الحد..." الغلَظة التي قال بها كولين كلماته فاجأته وماري على حدّ سواء. "ما كنتُ أريد قولَه هو إنها، رغم ذلك، بدت عازمة على أمرٍ ما..."

"آه، أجل..." قالت ماري. "الألم".

تنهّد كولين وعاد ينام تمامًا على بطنه.

مطّت ماري شفتيها وراحت تراقب الأطفال يلعبون في المياه الضحلة.

"تلك البطاقات البريدية..." همهمَت.

بقيا جالسين بعد ذلك نصفَ ساعة، كلاهما في جهامته الخفيفة، يُدير حوارًا خاصًّا مع نفسه يصعُب تحديد غايته؛ كلاهما يغمره شعورٌ أنّ الأيام القليلة الماضية هي طُفيليّة على حياته، دَخيلة عليها، وأنها مؤامرةٌ غير مُعلَنة تنكّر بها الصّمت بقناع الأحاديث الطويلة

المسترسلة. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت ربطة مطّاطيّة عقدت به شعرها على هيئة ذيل حصان. ثم نهضت بعزم وسارت إلى الشاطئ. أثناء مرورها جوار المجموعة الصغيرة العاصفة من الشبّان، بعضهم صفّر خلفها بنعومة. التفتت ماري إلى الوراء متسائلة، لكن الشبّان ابتسموا بخجل وأشاحوا أعينهم بعيدًا، وسعل أحدهم. كولين، الذي لم يغيّر وضعيّته، راح يراقبها: كاحلاها غمرتهما المياه بين الأطفال الذين ارتفعت ضحكاتهم وتصايحوا مذعورين بحماس بينما يلاحقون الأمواج. فيما ماري بدَت كأنها تراقب مجموعة أطفال أكبر عمرًا قد دخلت أبعدَ في مياه البحر، يمرقون وسطَ إطارٍ بلاستيكيّ مفشوش ويلهون به (الإطار الداخلي لجرّار مزرعة كما يبدو). خاضت في المياه حتى اقتربت منهم. الأطفال نادوها، لا شكّ أنهم حضّوها على السّباحة لا الخوض، والتقدّم في المياه نحوهم، فأومأت لهم مُجيبة. وبأقلّ التفاتة ممكنة، ألقت ماري نظرة من فوق كتفها نحو كولين، ثمّ اندفعت ورمت نفسها في حُضن المياه، وراحت تسبح سباحة صدرٍ هادئة مرتاحة كفيلة بأن تقطع بها عشرين شوطًا دون أدنى تعب لو كانت في بركة الحيّ المحليّة.

يتّكئ كولين على مرفقيه إلى الوراء، يستمتع بالدفء والعُزلة النسبيّة. أحد الشبّان جلب معه كرة حمراء للّعب في الشاطئ، والآن ثمّة لغط حول أيّ لعبة تناسبها، وحول الأمر الأصعب أيضًا، تشكيل الفِرَق. إحدى الفتاتين انضمّت للّعب، كانت تطعن بإصبعها صدر أضخم الشبّان في استهزاء تحذيريّ. أمّا صاحبها، الذي كان نحيفًا وطويلًا وضعيف السّاقين قليلًا، أصابعه تلعب في قلقٍ بضفيرة من شعره، بينما ثبّتت الفتاة في وجهها تعبيرًا مؤدّبًا مع ابتسامة إذعان. كانت

تحدّق أيضًا في وجه شابٍّ يربض هناك مثل غوريلا وقد بدا عازمًا كلّ العزم على تسليتها. عندما انتهى من سَرد إحدى قصصه عليها، اقترب منها ولكم كتفها بخفّة وودّ. وبعد وقتٍ قصير، قطع المسافة بينهما مجددًا وعرقل قدمها ثم ابتعد عدّة خطوات، والتفت إليها سائلًا أن تلحقه. مرّرت أصابعها خلال شعرها والتفتت نحو صاحبها. غير أن الغوريلا عاد مجددًا يتقصّدها، وهذه المرّة صفع مؤخّرتها صفعةً ماهرة أشبه بصفعة تمرير كُرة، وقد صدر عنها صوتٌ عالٍ مُفاجئ. الآخرون، بمن فيهم الفتاة الأخرى الأقصر، ضحكوا، فيما الغوريلا انقلب مبتهجًا على يديه ثمّ عاد واقفًا على قدميه (استدارة العجلة). لم تزل الفتاة الطويلة النحيفة حينها تبتسم له بشجاعة، وابتعدت مجددًا عن طريقه. ثمّة مظلّتان شاطئيّتان غُرستا في الرمل على بُعد أقدامٍ منهم، ورُبطتا ببعضهما من الأعلى بخيط: مُباراة كرة طائرة كانت على وشك البدء. الغوريلا، بعد أن جهد نفسه في أن تكون الفتاة الطويلة ضمن فريقه، أخذها جانبًا وراح يلقّنها قواعد اللعبة. أخذ الكرة، وبقبضته المشدودة أمامها، لكَمَ الكرة لتطير عاليًا في الهواء. أومأت الفتاة وابتسمت له. رفضت أخذ الكرة عندما جاء دورها، لكن الغوريلا أصرّ عليها فأذعنت له، لاكمةً الكرة بضعة أقدامٍ في الهواء. صفّق لها الغوريلا بينما يجري خلف الكرة.

كولين كان يسير حذو الماء، وانحنى ليفحص كومةً من الزّبد ألقاها الموج إلى الرّمل. في كلّ فقاعة صغيرة كان الضوء يتكسّر مشكّلًا قوس قزحٍ كامل على السّطح. كان الزّبد آخذًا في الجفاف التوّ أمام عينيه، عشرات أقواس قزح تختفي كلّ ثانية، ورغم ذلك لا تختفي في وقت واحد معًا. عندما انتصب مجددًا كان لم يتبقّ شيء من الزّبد سوى

دائرة غير سويّة من الوسخ. ماري غدت الآن على بُعد مئتي ياردة تقريبًا من الشاطئ، بدا رأسها نقطة سوداء صغيرة على خلفيّة من الرماديّ الشّاسع. وكي يراها بشكل أفضل، ظلّل كولين عينيه بكفّه، وإذا بها لا تسبح. في الحقيقة، كانت تواجه الشاطئ، لكن يصعُب تحديد ما إذا كانت تسبح نحوه أو تخوض في الماء. وكأنها تجيبه على حَيرته، رفعت يدها ولوّحت له في عُجالة. هل كانت تلك يدها، حقًّا، أم موجة خلفها؟ للحظة فقد رأسها فلم يعد يراه، غطس ثم عاود الظهور، ومرّة أخرى ثمّة حركة غريبة تعلوه. بالتأكيد تلك ذراعها. أخذ كولين نفسًا سريعًا ولوّح لها بالمقابل. كان قد خطى عدّة خطوات في الماء دون أن يشعر. بدا رأسها الآن وكأنه يتلفّت، دون أن يختفي، يتقلّب يمينًا ويسارًا. نادى باسم ماري، لا بصوتٍ عال، بل بهمسة جزعة. كان قد خطى في الماء حتى حاذى صدره، ورمى آخر نظرة نحوها. مرّة أخرى اختفى رأسها، وصعُب عليه أن يرى هل كان غاطسًا في الماء أم أنّه اختفى خلف مجموعة الأطفال.

اندفع يسبح نحوها. في بِركة الحيّ المحليّة، اعتاد كولين أن يؤدّي ضربات حادّة في الماء بأسلوب مميّز مخلّفًا وراءه عميقًا في الماء أخدودًا أو اثنين في الأيّام الجيّدة. لكنّه في المسافات الطويلة ضعيف، ولطالما اشتكى من ملل السّباحة ذهابًا وإيابًا. الآن كيّف نفسه مع ضربات السباحة الطويلة، متنفّسًا بعُلوّ، مُطلقًا تنهّدات طويلة، وكأنّه يسخر من تسلسلٍ ما لأحداث حزينة متتابعة. بعد خمس وعشرين ياردة، صار عليه أن يتوقف كي يلتقط أنفاسه. طفى على ظهره بضع لحظات، ثمّ فلقَ الماء. طول سباحته، خلال غشاوة عينيه، لم تكن ماري تُرى أبدًا. توقّف مجدّدًا، لكن هذه المرّة كي يغيّر طريقة السّباحة، إذ راحت

ذراعاه تتواليان ببُطء في ضرباتٍ حُرّة، جانبيّة وطوليّة متعاقبة، ما سمح له بتنفّسٍ أفضل، وجعلَ رأسه فوق الأمواج التي باتت الآن أكبر، سالكًا الطريق الخفيضة بين كلّ موجتين عاليتين، متجنّبًا تعب السباحة خلالها. عندما توقف مرّة أخرى، بالكاد يستطيع رؤيتها. نادى باسمها، لكن صوته غدا ضعيفًا، وبدا أنّ ذلك يوهِنه أكثر لأنّه يسمح لهواء كثير بالخروج من رئتيه خلال لحظة واحدة. هُنا، بعد كل تلك المسافة من الشاطئ، الطبقة العُليا فقط من الماء هي الدافئة؛ إنّ قدميه وهو يسبح شاقًّا الماء تتنمّلان من البرد. عندما عام ليسبح تلقّى بوجهه موجةً بأكملها فابتلع كمّية كبيرة من المياه. انخفضت الموجة بنعومة، لكن كان عليه أن يطفو على ظهره كي يتعافى. "يا إلهي"، قال ذلك أو ربما ظنّه، مرّة تلو الأخرى، "يا إلهي!" عاود الكرّة مجددًا، وبعد بضع ضرباتٍ توقّف، شعر أن ذراعيه ثقيلتان جدًّا وبالكاد يستطيع حملهما خارج المياه. الآن، استمرّ في تأدية الضربات الجانبية فقط، شاقًّا طريقه عبر الماء، محقّقًا تقدمًا ضئيلًا. عندما توقّف مجددًا، يشهق للهواء، يتلع رأسه خارج الموج، كانت ماري على بُعد عشرة ياردات منه، تخوّض في المياه. ما كان في استطاعته أن يرى بدقّة تعابير وجهها. كانت تناديه، لكن المياه التي تجري حول أذنيه بلبلَت الكلمات. هذه الياردات الأخيرة استغرقته وقتًا طويلًا لقطعها. ضربات كولين انحلّت إلى ما يشبه الزّحف الجانبيّ، وعندما يستجمع قواه للنظر أعلى المياه، يرى أن ماري قد ابتعدت بضع ياردات أكثر. وأخيرًا وصل إليها. مدّ يده إلى كتفها، وغطست برأسها تحت أصابعه. "ماري!" صاح كولين، وابتلع ماءً مرة أخرى.

عاودت ماري الظهور. كانت عيناها حمراوان صغيرتان. لهث كولين

سابحًا في توقٍ إلى كتفها مرّة أخرى. "على مهل" قالت له. "استلقي على ظهرك وإلا ستُغرقنا معًا". حاول أن يتكلّم لكن الماء ملأ فمه ما إن فتحه. "ما أروع المكان هنا بعد تلك الشوارع الضيّقة!" قالت ماري. كولين ما زال على ظهره طافيًا، يفرد يديه ورجليه مثل نجمة بحر. عيناه مغمضتان. "أجل،" قال أخيرًا، وبصعوبة. "خياليّ!"

وجدا الشاطئ أقلّ ازدحامًا حين عادا إليه، لكن مباراة كرة الطائرة كانت قد انتهت للتوّ. الفتاة الطويلة تسير مبتعدةً وحدها، وقد أحنَت رأسها. اللاعبون الآخرون راحوا يراقبون الغوريلا بينما يتقافز وراءها، ثمّ راح يسير أمامها عكسيًّا بينما وجهه إليها، ملوّحًا بذراعيه في دوائر بينما يرجوها ويتوسّلها أمرًا ما. سحب كولين وماري أغراضهما إلى ظلّ مظلّة مهجورة، وناما نصف ساعة. عندما استيقظا خفّت حشود الشاطئ أكثر. لاعبو كرة الطائرة وشبكتهم اختفوا. وحدها الأسر الكبيرة مع ما أعدّته من وجبات التنزّه ما زالت هناك، حول طاولات من بقايا الطعام وأشيائه، بعضهم دائخ وبعضهم يتبادل الأحاديث همسًا. باقتراحٍ من كولين، ارتديا ملابسهما وسارا إلى الجادة المزدحمة بحثًا عن طعام وشراب. وللمرّة الأولى يعثران سريعًا، بعد ربع ساعة من البحث، على مطعم يناسبهما. جلسا في المساحة المفتوحة على الشارع، تحت الظلال الخضراء الداكنة لتعاريش النبت البنفسجي التي تتسلّق ياردات عدّة من خشب السّقف المتقاطع. طاولتهم منعزلة، مفروشة بطبقتين من الأغطية الوردية المنشّاة، مزوّدة بأطباق وأدوات منمّقة وثقيلة، شديدة اللمعان؛ تتوسّط الطاولة قرنفلة حمراء في مزهرية منمنمة من سيراميك أزرق فاتح. النادلان اللذان خدماهما كانا لطيفين لكن بعيدين عن مستوى الحصول على

رضاهما. قائمة أطباق الطعام كانت موجزة ما أوحى لهما أن إعداد الأطباق يحتاج إلى وقت وتركيز واهتمام. لكن تكشّف لهما لاحقًا أن الأطباق جدُّ عاديّة، لكن النبيذ جيّد، وشربا منه قنّينة ونصف. لقد تبادلا الحديث، لم يناقشا أمرًا، بأدب كبير وعفويّة مثل صاحبين قديمين. تجنّبا الإشارة إلى نفسيهما وإلى هذه الإجازة. عوضًا عن ذلك جاءا على ذكر أصدقاءهما المشتركين وتساءلا عن أحوالهم، واستذكرا عدّة ترتيبات لا بد من القيام بها أثناء رحلة العودة إلى ديارهما، تكلّما عن الضربات الشمسيّة وعن مزايا كلٍّ من سباحة الصدر والسباحة الحرّة. تثاءب كولين مرّات عدّة.

فقط عندما خرجا، يسيران متخمين تحت الظلال، وخلفها النادلان يشاهدانهما من عتبات مساحة المطعم المفتوحة، وأمامهما الجادة المستقيمة الواصلة بين الشاطئ والبحر وبين رصيف الميناء والمقهى العائم... حينها فقط شبك كولين سبّابته بإصبع ماري – كان الجوّ حارًّا ليشبكا كفّيهما – وجاء على ذكر الفوتوغراف. هل كان روبرت يتبعهما هنا وهناك حاملًا آلة تصوير؟ هل هو يراقبهما الآن؟ شهقت ماري والتفتت تنظر إلى الوراء. ثمّة آلات تصوير في كل مكان، معلّقة مثل سمك في أكواريوم بخلفيّة من أعضاء البشر وملابسهم، غير أن روبرت لم يكن هناك. "ربما،" قالت ماري "يعتقد أنك تحمل وجهًا جميلًا".

استهجن كولين ما قالته ماري. فَرَكَ كتفيه قبل أن يرخي يديه قائلًا "تعرّضتُ لكثير من أشعة الشمس"

سارا في اتجاه رصيف الميناء. الناس باتوا الآن يغادرون المطاعم والحانات، عائدين مرّة أخرى إلى الشاطئ. وكي يتقدّمان قليلًا، نزل

كولين وماري عن الرصيف وراحا يسيران في الشارع. وجدا حافلة مائيّة واحدة فقط عند رصيف الميناء عندما وصلاه، وكانت على وشك المغادرة. كانت أضيق وأصغر من الحافلات التي تقطع عادة البحيرة، إنّ قُمرة القيادة السوداء ومثلها المدخنة الأشبه بقبّعة عالية، أعطت الحافلة شكل حفارّ قبور أشعث. كان كولين في طريقه فعلًا إلى الحافلة، بينما توقّفت ماري لتقرأ جدولًا معلقًا على كشك التذاكر.

"سينعطف المركب مستديرًا حول الجزيرة إلى جانبها الآخر أوّلًا" قالت له ماري ما إن لحقت به. "ثم سيقطع الجزيرة خلال مرفئها ويدور متّجهًا إلى وجهتنا"

فَورَما وطئت أقدامهما ظهر الحافلة، دخل الملّاح قمرة القيادة وراح صوت دوران المحرّك يعلو حتى استقرّ. فريقه – رجل واحد ذو شارب هائل كالمعتاد – حرّر الحبال وأغلق باب البوّابة المعدنيّة. للمرّة الأولى يجدان عدد الرّكاب قليلًا هكذا، فوقف كولين وماري على مسافة من بعضهما، كلّ في جهة خارج القُمرة، يحدّقان خلال مقدّمة المركب المُبحر نحو ما يُرى في البُعد من أبراج وقُبَب شَهيرة، متجاوزًا برج الساعة الضخم، حتى رسى في جزيرة المدافن، ومن هنا لا يُرى سوى مسحة سديم تحفّ الأفق.

الآن بدأت الرّحلة، استقرّ المحرّك على صوتٍ من نغمَتين موقّعتين ومسليّتين، تتَتابعان منفصلتين خلال زمن نصف نغمة. طول الرحلة – استغرقت حوالي خمسًا وثلاثين دقيقة – لم يتبادلا الحديث، ولم يرنُ أحدهما نحو الآخر أبدًا، جلسا في مقعدين متقابلين واستمرّا يحدّقان جهة مقدّمة المركب. بين أيديهما وقف البحّارة متراخين

عند باب مقطورة القيادة الموارَب، يتبادلون من حينٍ لآخر بعض الملاحظات مع القبطان. أراحت ماري ذقنها على مرفقها، وكان كولين يُغلق عينيه من وقتٍ لآخر.

عندما راحت المركب يتباطأ آذنًا بقُرب وصوله إلى رصيف المرسى قُربَ المشفى، عبرَ كولين نحو ماري كي يرى المسافرين الذين ينتظرون المركب ليستقلّوه. كانوا مجموعةً يغلب عليها كبار السنّ، ورغم الحرارة فإنهم وقفوا متقاربين ما أمكنهم دون أن يتلامسوا. ماري أيضًا كانت قد نهضت عن مقعدها، لكنها أرسلت نظراتها إلى محطّة الرسوّ القادمة الواضحة للعيان على بُعد ربع ميل من المياه السّاكنة. ساعَدوا كبارَ السنّ من المنتظرين في الرّكوب، ثم تبادل القبطان وفريقه بعض الصيحات، قبل أن يُبحر المركب مجدّدًا مجاورًا الرّصيف الذي سارا عليه قبل خمسة أيام.

انتصب كولين خلف ماري مباشرّة، قريبًا منها، وقال في أذنها "ربما علينا النّزول في المحطّة القادمة وقطع ما تبقى من مسافة سَيرًا. إن ذلك أسرع لنا من انتظار أن تستطير بنا الحافلة المائيّة نحو المرفأ". رفعت ماري كتفها ثم أنزلتها قائلة في تشكّك "ربما". لم تستدر لتنظر إليه. لكن عندما راح المركب يحاذي مَرسى المحطّة القادمة، وراح أحد العمّال يلفّ الحبل حول عمود مربَط الحبال، التفتت سريعًا وقبّلت شفتيه قُبلة طائرة. البوّابة المعدنية فُتحت فتقدّم بعض الركّاب ونزل آخرون بالفعل. مرّت لحظةٌ توقّف خلالها الجميع عن الحركة، إذ بدا كأنّ كلّ واحد منهم علقَ بين حركَتين عليه أن يشرع في أحدهما أوّلًا، مثل أطفالٍ مندمجين بلُعبة خُطى الجدّة (Grandmother's Footsteps). أرخى القبطان ساعدَه على المقود وراح ينقّل

نظره بين ملّاحيه. كان قد قبض على نهاية الحبل المرتخية ويوشك أن يُديرها في الهواء كي يحلّ الحبل عن عمود المربَط. استقرّ الركّاب الجدد في مقاعدهم، لكنّ تبادُل الأحاديث المقتضبة المعتادة بين المسافرين لم يحن أوانه بعد. ثلاث خطوات خطاها كولين وماري من ظهر المركب ذي الصّبغة اللامعة المتقشرة إلى خشب رصيف الميناء المشقوق المسوّد، بعدها مباشرة سمعا صيحة القبطان الحادّة بملّاحيه، الذين أومأوا له ورفعوا حبل المرسى فورًا. تناهى إليهما، من داخل المركب، من الجزء المسقوف كتيم الهواء، ضحكات مفاجئة وكلامُ أناسٍ اندفعَ فجأة. سار كولين وماري بهدوء وفي صمت طول رصيف الميناء. المشهد المتقطّع الذي تُتيحه التفاتاتهما نحو اليسار تشوّشه سياقاتٌ من أشجار، وبيوت، وجدران، لكن فُرجة قُدّرَ لها أن تكون هناك، ووجدا نفسيهما أنهما توقّفا معًا عن السّير، وراحا يحدّقان إلى ما بعد زاويةٍ لمحطّة كهرباء عالية، إلى ما بين غصنين من شجرة وارفة باسقة، إلى شُرفة مألوفة ذات أزهار معلّقة، حيث يقفُ هناك خيال شخصٍ صغير يرتدي البياض، حدّق فيهما هنيهة ثم راح يلوّح لهما. فوق وَقعِ ناعمٍ يخلّفه المركب المُبحر، علا صياح كارولين، تناديهما. لم يزل واحدهما يتجنّب عين الآخر حين توجّها نحو زقاقٍ إلى يسارهما يُفضي بهما إلى المنزل، ولم يتشابكا الأيدي.

- 9 -

ألقيا لمحةً من بيت الدرج إلى أعلى، فرأيا وجهًا ظِلّيًّا، إنّه روبرت، ينتظرهما في فُسحة الدرج الأخيرة. صعدا في هدوء، كولين يسبق ماري بخطوة أو اثنتين. فوقهما سمعا نحنحة روبرت بوضوح وبعض كلامه. كارولين كانت تنتظرهما هناك أيضًا. عندما انعطف الدرج وانعطفا معه صاعدَين آخر العتبات، أبطأ كولين صعوده ومدّ يدًا وراءه تُريد ماري، لكن روبرت كان قد نزل بضع عتباتٍ للقاءهما. وبابتسامةٍ ترحيبيّة مُذعنة، تختلف بشكل ملحوظ عن ما اعتاداه من شخصيّته الصّاخبة، دفع ذراعه لتنزلق مُحيطةً بعاتق كولين، كأنه يساعده في صعود العتبات الأخيرة، وهو في قيامه بذلك أدار ظهره جليًّا لماري. قبالتهم، تقف كارولين متّكئة بغرابة مُريبة في مدخل الشقّة، مرتديةً فستانًا أبيض له جيوب مربّعة عمليّة، ابتسامتها خطّ مستقيم أفقيّ من الارتياح. كان ترحيبهما بهما حميميًّا لكنّه مكبوح الجماح، مزيّن. اقتيد كولين إلى كارولين التي عرضت له خدّها، وفي

الوقت نفسه اعتصرت كفّه بخفّة لحظة. طول الوقت، أبقى روبرت، وقد ارتدى بدلةً غامقة ذات معطف وقميص أبيضَين دون ربطة عنق، مع حذاء أسود خفيض الكعب، أبقى ذراعه على عاتق كولين، ولم يتركه إلا ليستدير نحو ماري أخيرًا، مؤدّيًا لها أقلّ انحناءات الترحيب الممكنة حتى بدت تهكميّة، وأمسك يدها حتى نزعتها منه مستديرة حوله كي تتبادل القبلات مع كارولين، مجرّد احتكاك خدّين ببعضهما. والآن يزحم بعضهم بعضًا أمام الباب، دون أن تندّ عن أحدهم أيّ حركة للدخول.

"الحافلة المائيّة أتت بنا إلى هذه الجهة من الشاطئ" قالت ماري مفسّرةً وجودهما. "لذا فكّرنا أن نلقي عليكما التحيّة"

"كنّا نتوقّع عودتكما إلينا في وقتٍ أقرب" قال روبرت، ثمّ أراح كفّه على يد ماري وراح يكلّمها كأنهما وحدهما في المكان. "لقد أبرم كولين اتفاقًا مع زوجتي وبدا أنه نسيَه. تركتُ لكما رسالة في فندقكما هذا الصباح"

كارولين أيضًا وجّهت كلامها إلى ماري وحدها كأنهما منعزلتان "نحن نوشك على الرّحيل أيضًا، انظري. كنّا قلقَين أن نفوّت لقاءكما"

"لمَ؟" سأل كولين بغتة.

ابتسم روبرت وكارولين، أمّا ماري، كي تغطّي على ردّ الفعل الطائش ذاك من كولين، فقد قالت بدماثة "إلى أين أنتما راحلان؟"

ألقت كارولين نظرةً على روبرت الذي تراجع خطوةً إلى الوراء عن المجموعة، ثم أراح يده على الجدار. "أوه، إنها رحلة طويلة. لم تزُر كارولين والديها منذ سنوات. سنخبركما عن ذلك لاحقًا". أخذ منديلًا من جيبه وربّت جبينه. "الآن ثمّة أمرٌ تجاريّ لا بدّ لي من إنهائه بشأن

حانتي". ثمّ وجّه كلامه إلى كارولين "خذي ماري إلى الداخل، وقدّمي لها بعض المرطبات، أمّا كولين فسيذهب معي". عادت كارولين بضع خطوات إلى الشقّة، وأومأت لماري أن تتبعها.

ماري مدّت يدها لتأخذ حقيبة الشاطئ من كولين وكانت على وشك الحديث عندما اعترضها روبرت واقفًا بينهما وبين كولين "اذهبي إلى الداخل" قال لها "لن نتأخّر كثيرًا".

كولين أيضًا أراد الحديث إلى ماري، ومدّ عنقه كي يصطادها بعينيه خلف روبرت، لكن الباب كان يُغلَق، بينما روبرت يحاول دفعه بلُطف إلى نزول الدرج.

اعتاد الناس هنا على رؤية الرجال يمشون معًا في الشارع بأيدٍ متشابكة، وأذرعٍ متشابكة أيضًا. اعتصر روبرت كفّ كولين بشدّة، أصابع الأوّل تلتف على أصابع الثاني وتضغط باستمرار، ما جعل نزع الكفّ من الكفّ يتطلّب حركةً متعمّدة تامّة، قد تبدو مُهينة، لكنها ستكون مُريبة دون شكّ. اتّخذا هذه المرّة أيضًا طريقًا مختلفة، أزقّة خالية نسبيًّا من السيّاح ومتاجر التذكارات. حيٌّ يبدو خاليًا من النساء أيضًا، إذ مهما كانت الأماكن التي يعبرانها، حانات ومقاهٍ، ونواصٍ حيويّة وجسور مائيّة، وقنطرة أو اثنتين، ثمّة ذكور من مختلف الأعمار، يرتدي معظمهم أقمصةً ذات أكمام طويلة، ويتحدّثون متحلّقين في مجموعات صغيرة. وبين هنا وهناك، ثمّة أناس يغلبهم النعاس بينما يقرؤون الصّحُف في حجورهم. وصِبية صغار يقفون جوار المجموعات، يكتّفون أياديهم باهتمام مثل آباءهم وإخوتهم. بدا أن الجميع يعرف روبرت، وأنّه يختار دربًا يُنبِئ بأكبر قدْرٍ من

اللقاءات، مُقتادًا كولين عبر القناة لتبادل حديثٍ سريعٍ خارج الحانة، عائدًا إلى حيٍّ أصغر حيث مجموعة من الرّجال الأكبر سنًّا يقفون حول نافورة مهجورة يفيض حوضها بعُلب سجائر مجعّدة. لم يتمكّن كولين من متابعة الحوارات، رغم أنّ اسمه تكرّر فيها مرارًا، أو هكذا بدا له. وبينما يستديران لمغادرة مجموعة صاخبة خارج قنطرة ما، أحدهم صفع مؤخّرته بقوّة فالتفت غاضبًا. لكن روبرت جذبه إليه بينما ارتفعت ضحكات لاحقتهما إلى نهاية الشارع.

رغم المدير الجديد، رجلٌ ذو كتفين عريضتين بساعدين موشومَين، والذي نهض لاستقبالهما عندما دخلا، لم يتغيّر شيء في حانة روبرت؛ الضوء الأزرق نفسه ينبعث من دولاب الموسيقى ذي الأسطوانات، الثّاوي الآن في صمت، وصفّ الكراسي الواقفة على أرجل سوداء دون مساند ظهر ووسائد حمراء تصطفّ إلى طاولة المشرَب، وإضاءة القبوّ الصّناعية المحترفة الثّابتة التي لا تتأثر بدوران اليوم أكان ليلًا أم نهارًا في الخارج. الساعة بالكاد وصلت الرّابعة، ولم يتواجد من الزبائن سوى ستّة، جميعهم يقفون إلى المشرَب. ما كان جديدًا، أو بارزًا أكثر، هي الحشرات السوداء الكبيرة التي تطير في صمت بين الطاولات مثل أسماك مُفترسة. صافح كولين المدير، سأله كأسَ مياه معدنيّة، وجلس إلى الطاولة التي جلسوا إليها سابقًا.

استأذن روبرت، وذهب خلف مشرَب الحانة مع المدير لتفحّص بعض الأوراق التي كانت قد فُرِدَت على الطاولة. بدا أن الرّجلين يوقّعان اتفاقًا. عُلبة مياه معدنيّة مثلّجة، وكأس وطاسُ فستق، وُضعت جميعًا بيد نادلٍ على المشرَب قبالة كولين. ناظرًا إلى روبرت الذي نهض عن الورق واستقام ملتفتًا نحوه. رفع كولين كأسه تحيّةً.

لكنّ روبرت، رغم استمراره في التحديق إلى كولين، لم يتغيّر تعبير وجهه. ثمّ أومأ ببطء لفكرةٍ خطرت له، وخفض نظرَته إلى المستندات قبالته مرّة أخرى. واحدًا تلو آخر، راح الشّاربون في الحانة ينظرون إلى كولين، ثمّ أعادوا نظراتهم إلى كؤوسهم وأكملوا تجاذب أطراف أحاديثهم الهادئة. احتسى كولين من كأسه، ثم تفحّص عن قُرب الفستق وتناوله كلّه، ثمّ أدخل كفّيه في جيبَيه، ودفع كرسيّه إلى الوراء ليتأرجح على قائمتين فقط. عندما التفت أحد الشّاربين إلى كولين ثم اعتدل مواجهًا جاره في المشرَب، الجار الذي غيّر من وضعه أيضًا ليواجهه بعينيه، نهض كولين وسار عازمًا نحو دولاب الموسيقى. وقف وقد كتّف ذراعيه محدّقًا إلى أشرطةٍ من الأسماء الغريبة والعناوين المبهمة، كأنه عالق أيّها يختار. الشّاربون حينها راحوا يراقبونه بحماسة لا تخطئها العَين. أسقط قرشًا في الآلة، فومضت لقَبول القِرش ومضات مشعّة متبدّلة، ومستطيل من ومض أحمر راح ينبض أيضًا، كلها تعجّل به أن يختار. أحدهم خلفه عند المشرَب صاح عاليًا بجملة قصيرة قد تكون ببساطة عنوان أغنية. بحث كولين خلال أعمدة من البطاقات المطبوعة، تخطى كثيرًا منها ثم عاد إلى العنوان المفهوم الوحيد – "ها ها ها" – ورغم أنّه ضغط أرقام الأغنية فاختارها وانتفضت الآلة الضخمة تحت أصابعه، عرف أنها الأغنية العاطفية الانفعالية نفسها التي استمعا إليها سابقًا. وبينما كولين يعود إلى مقعده، رفع المدير رأسه وابتسم. صاح الشّاربون أن يُعلا من الصّوت أكثر، وعندما ارتفعت أوّل أصوات الجوقة التي تصمّ الآذان مجتاحةً المكان، طلب رجُلٌ تجديد كؤوس الشّراب جميعها بينما يقرع طاولة المشرَب بكفّه على الإيقاع الحاسم شبه العسكريّ.

جاء روبرت وجلس جوار كولين وتابعَ تفحّص المستندات بينما تصل الأغنية إلى آخرها. عندما انطفأت الآلة، ابتسم روبرت ابتسامة واسعة وأشار إلى عُلبة المياه المعدنية الفارغة. أومأ كولين برأسه. عرض روبرت عليه سيجارة. ثمّ، مكشّرًا لرفض كولين الحاسم، أشعل واحدة لنفسه وقال "هل فهمت ما كنت أخبر به الناس في طريقنا إلى هنا؟". هزّ كولين رأسه نافيًا. "ولا حتى كلمة واحدة؟"

"لا."

ابتسم روبرت مجدّدًا ببهجة ناعمة. "كلّ من قابلناه، أخبرته أنك حبيبي، وأن كارولين تشعر بغيرة شديدة، وأننا معًا قادمان إلى هنا كي نسكَر وننسى أمرها."

أثناء ذلك، كان كولين يدسّ أطراف قميصه تحت بنطاله. ثمّ أجرى أصابعه خلال شعره، ورفع رأسه رامشًا.

"لماذا؟"

ضحك روبرت، وقلّدَ بدقّة حركات روبرت المتشكّكة البطيئة. "لماذا؟ لماذا؟" ثم مال إلى الأمام ولمس ذراع كولين. "عرفنا أنك ستعود. كنا ننتظر، ونستعد. ظننا أنك ستأتي في وقت أبكر"

"تستعدان؟" قال كولين، جاذبًا ذراعه. طوى روبرت أوراقه ودسّها في جيبه، وراح يحدّق إلى كولين بشغف رقيق.

كان كولين على وشك الكلام، قبل أن يتردّد، ثمّ قال بسرعة "لماذا التقطتَ تلك الصورة لي؟"

ارتسمت على شفتي روبرت ابتسامات، واحدة تلو أخرى. اتّكأ إلى الوراء، يؤرجح ذراعه خلف ظهر الكرسي، ويشعّ ببهجة رضا. "ظننت أنّي لم أُتِح لها وقتًا كافيًا لتميّز ما رأت. إنّ ماري سريعة!"

"ما غايتك منها؟" أصرّ كولين في السؤال، لكنّ زائرًا جديدًا دخل الحانة وعبرَ جوارهما، وفجأة راح دولاب الموسيقى يصدح بأغنية "ها ها ها" مرّة أخرى بصوت أعلى. كتّف كولين ذراعيه ونهض روبرت مُحَييًا مجموعة أصدقاء كانت تعبر جوار طاولتهما.

خلال عودتهما إلى المنزل، هذه المرّة سلكا طريقًا نازلة أقلّ ازدحامًا، وكان جزء كبير منها يحاذي الواجهة البحرية، خلال ذلك ضغط كولين على روبرت في شأن الفوتوغرافات مرّة أخرى، وما الذي عناه بقوله إنّه وكارولين قد استعدّا؟ لكن روبرت كان متوثّبًا ويتملّص، مُشيرًا إلى الحلّاق الذي اعتاد جدّه ارتياده، في الردّ على كولين، واعتاد والده ذلك، وهو أيضًا اعتاده. ثمّ راح يشرح بصخب وإطناب مطوّل بدا ساخرًا، كيف أثّر التلوّث البيئي على حياة الصيّادين ودفعهم إلى امتهان أعمالٍ أخرى كنُدُل.

شاعرًا باستياء وغضب طفيفَين، توقّف كولين بغتة عن السّير، لكن روبرت، رغم أنّه أبطأ من سَيره المندفع والتفت متفاجئًا، مشى الهوينى وكأن الأمر بات مسألة كرامة ألّا يقف هو لوقوف كولين.

بات كولين حينها قريبًا من البقعة التي جلس فيها هو وماري على صناديق التعبئة عند رصيف الميناء، بعد خروجهما من حانة روبرت ونومهما في الشارع، حيث شاهدا شروق الشّمس. أمّا الآن، عصرًا، رغم أن الشمس ما زالت عالية في كبد السماء، فإن السماء في الشّرق فقدت لونها البنفسجيّ الرّقيق، وبهتت في درجات متفاوتة من أزرقٍ طفوليّ ولونِ حليبٍ مخفوق تعبُر خطّ الأفق، وتلتقي بخطّ البحر الرماديّ لتمتزج به. جزيرة المدافن، سورها الواطئ، وشواهدها المزدحمة الفاقعة، أبرزتها الشمس خلف كولين. رغم ذلك، لم تكن

هناك علامة على الليل في السماء الشرقية. ألقى كولين نظرةً جانبيّة إلى رصيف الميناء يساره. بات كولين على مبعدة منه، خمسين ياردة تقريبًا، يسير برويّة نحوه. التفت كولين لينظر خلفه. ثمّة طريق ضيّقة تجاريّة، بالكاد أوسع من زقاق، اخترقت صفًّا من بيوت أبلتها تقلّبات الجوّ. الطريق تلتفّ تحت مظلّات متاجر، وثياب مثل أشباح تتدلّى من شُرفات ضيّقة مشغولة المعدن، ثم تختفي الطريق بإغواء في الظلال، تسأل ناظرها أن يكتشفها، لكن دون دَليل ولا مرافق. السّير إلى هناك الآن كأنّك حُرّ تمامًا، أن تنفكّ عن حالات الشقاء التي تضعك فيها الألاعيب النفسيّة، أن تستمتع برفاهية الانفتاح والانتباه الحاضر أمام عالمٍ يلتقط أنفاسه، عالم أبديّ مندفع يُحيط بالحواسّ، السّير إلى هناك جدُّ سهل، لكنّه على ذلك خيارٌ مُتجاهَل، مكبوت، لصالح المُثُل المتعلّقة بالمسؤوليّة تجاه الآخرين والهويّة الذاتيّة والثبات، التي لم توضع على المحكّ قط. أن تخطو إلى هناك الآن، مجرّد السّير مبتعدًا، الذوبان في الظّلال، كان ليكون جدُّ سهل. تنحنح روبرت بنعومة. كان على بُعد بضع خطوات عن يسار كولين. التفت كولين مرّة أخرى لينظر إلى البحر، وقال بخفّة وظُرف "إن أمارة الإجازة الناجحة هي رغبتك في العودة إلى الديار." مرّت دقيقة كاملة قبل أن يتكلّم روبرت، وعندما فعل كان في صوته أثَرٌ للنّدم "حان وقت الذهاب"

الرّواق، ما إن دخلته ماري وأطبقت كارولين الباب خلفهما بإحكام، بدت مساحته كأنها تضاعفت. عمليًّا، قطع الأثاث جميعها، واللوحات، والبُسُط، والثريات ومعلّقات الجدران، اختفت كلّها. مكان

طاولة الطعام العريضة اللامعة وُضعت الآن ثلاثة صناديق ترفع لوح خشبٍ سميك انتثرت فوقه بقايا غداء. وحول هذه الطاولة الملفّقة أربعة مقاعد. الأرضيّة مساحة ممتدة من الرخام، وصندل ماري ينقرها فيتردّد صداه عاليًا خلال تقدّمها في الرّواق. ما بقي ممّا له أهميّة هو خوان روبرت، ضريحه. خلف ماري، عند الباب تقريبًا، ثمّة حقيبتان. وما زالت الشرفة باذخة بالنباتات، لكن الأثاث اختفى من هناك أيضًا.

كارولين، التي ما زالت حينها تقف عند الباب، مسّدت فستانها براحَتَيها "لا ألبس عادّة مثل ممرّضة" قالت. "لكن عندما يلزمني ترتيب أشياء كثيرة، أجد نفسي فعّالة أكثر في أرديتي البيضاء"

"أنا لستُ كفؤة مهما كان اللون الذي أرتديه" قالت ماري، وابتسمتا لبعضهما.

وخارج سياق المنطق، لم يكن من الممكن تمييز كارولين. شعرها، الذي كان مشدودًا تمامًا إلى الوراء، صار الآن مُرسلًا. ضفائرها نعّمت قسمات وجهها الذي، خلال الأيام الماضية، فقدَ سمَته الغرائبية. شفتاها خاصّة، اللتان كانتا جدُّ نحيفتين وخاليتين من الدماء، باتتا الآن ممتلئتين، وإلى حدّ ما مُغويتَين. جسرُ أنفها المستقيم، الذي بدا سابقًا مجرّد حلّ مقبول لمشكلة تصميم، الآن يبعث على المهابة. العينان ظلّلتا لمعانهما الحادّ الجنونيّ، وباتتا تتوسّلان التواصل، وديّتان. بشرَتها فقط ما بقي على حاله، دون لون، ولا حتى من الشّحوب أدناه، رماديّ عائم.

"تبدين على خير ما يرام" قالت ماري.

تقدّمت كارولين بمشيتها المتأنّية المُريبة نفسها، وضمّت بكفّيها كفّا

ماري. "السّعادة تغمرني لعودتك" قالت، بترحيبٍ عجِل، وضغطت بكفّيها عندما نطقت "السّعادة" و"لعودتك". "وثقنا من أن كولين يلتزم بوعوده"

فكّت كفّيها كي ترتخيان، لكن ماري هي من أبقت كفّيها مشدودتَين. "لم نخطّط للمجيء إلى هنا، لكننا لم نأت من قَبيل المصادفة أيضًا. أردت أن أتحدث إليك". حافظَت كارولين على ابتسامتها معلّقة، لكن كفّيها ثقُلتا في كفّي ماري التي لم تكن لتتركهما. أومأت أثناء حديث ماري ثمّ وجّهت نظراتها إلى الأرض. "أمضيت وقتًا في التفكير فيكِ. أحمل أسئلة أريد طرحها عليك".

"أوه، حسنٌ" قالت كارولين بعد تردّد صامت. "لنذهب إلى المطبخ، سأعدّ شايًا بالأعشاب". ثُمّ جذبت كفّيها بحسم، واستعادت سلوك المُضيفة الجادّة. ابتسمت نحو ماري قبل أن تستدير بخفّة وتعرُجُ مبتعدة.

يقع المطبخ في نهايةٍ للرّواق شبيهة بنهاية أخرى يقع فيها مدخل الشقّة. كان ضيّقًا، لكنّه مرتّب جدًّا، ذا خزائن وأدراج كثيرة، وسطوح مغلّفة ببلاستيك أبيض. إضاءته فلورسنتيّة، ولم يكن هناك أثر لطعام. أخرجت كارولين من خزانة تحت حوض الغسيل مقعدًا معدنيًّا أنبوبيّ الأطراف، ودفعته إلى ماري لتجلس عليه. وبطاولة لعب ورق، دُعمَ الموقد الشّبيه بالمواقد التي تظهر في الدعايات، ذي عينين فقط دون فُرن، وخرطوم مطّاطيّ طويل ينتهي داخلٍ إلى أسطوانة غاز موضوعة على الأرض. وضعت كارولين غلّايةً على الموقد، ثمّ مدّت يدها بصعوبة ورَفْضٍ واضح للمساعدة إلى خزانة، وأخذت منها إبريق

شاي. بقيت واقفة لحظة، يدٌ تتكئ على الثلّاجة، والأخرى على وركها، وبدا أنها تنتظر ألمًا يجتاحها أن يعبُر. خلفها مباشرةً ثمّة باب آخر، موارب قليلًا، حيث تمكّنت ماري من رؤية زاوية سرير.

عندما استعادت كارولين نشاطها وراحت تغرف بملعقتها نثار ورود جافّة من إناء لتلقيها في إبريق الشاي، قالت ماري بنبرة عمدَت أن تكون عاديّة قدرَ استطاعتها "ما الذي فعلتِه لظهرك؟"

مرّة أخرى، شعّت شفتا ماري بابتسامتها الجاهزة، بالكاد أكثر من سنّين بارزين وحركة أماميّة سريعة بالفكّ. إنها ابتسامة من ذاك النوع الذي يؤدّى أمام المرايا، وما زاد غرابتها هو أن تؤدّى هنا، في هذا المكان الضيّق المشعّ. "ما فتئ ظهري على هذه الحال منذ وقت طويل" قالت ذلك ثم شغلَت نفسها بالأكواب والصّحون. شرعت تخبر ماري عن خطط سفرهما: سوف تطير هي وروبرت إلى كندا، وهناك سوف يمكثان عند والديها ثلاثة أشهر. وبحلول وقت عودتهما سيكونان قد ابتاعا مسكنًا آخر، شقّة أرضيّة ربما، مسكنًا لا حاجة لدخوله إلى درج. أثناء ذلك كانت قد ملأت كوبَين وتقطع ليمونة.

وافقت ماري بالقول إن الرّحلة المزمعة تبدو مثيرة والخطّة معقولة. "لكن ماذا عن الألم؟" سألت، "هل هو عمودك الفقريّ، أم حوضك؟ هل استشرتِ أحدًا في خصوصه؟" كانت كارولين قد أدارت ظهرها لماري وراحت تضع شرائح الليمون في الشاي. وأثناء صلصلةٍ صدرت عن ملعقة شاي، أضافت ماري "لا أريد سكّرًا"

استدارت كارولين إليها وناولتها كوبًا. "تابعي تقليب الليمون" قالت، "كي يبرُزَ مذاقه جيّدًا". حملا كوبيهما إلى خارج المطبخ. "سوف أخبرك بشأن ظهري"، قالت كارولين بينما تسلك طريقها إلى الشّرفة، ثم

تابعت "فقط عندما تخبريني كم هو جيّد هذا الشّاي. أزهار البرتقال"
أراحت ماري كوبها على سور الشّرفة، وسحبت كرسيّين من الداخل. جلستا كما فعلتا قبلًا، لكن باسترخاء أقلّ ودون طاولة بينهما، تواجهان البحر والجزيرة التي في الجوار. ولأن المقعدين أرفع من سابقَيهما، استطاعت ماري رؤية ذاك الجزء من رصيف الميناء الذي رأت هي وكولين منه كارولين التي ترفع كوبها الآن كأنها ستقترح نخبًا ما. بلعت ماري شربةً، وبسبب حموضة الشاي مطّت شفتيها إلى الأمام، لكنها قالت إنّه منعش. شربتا في صمت، واستمرّت ماري في النظر إلى كارولين بثبات، بترقّب، بينما ترفع كارولين نظرتها من حِجرها بين لحظة وأخرى لتبتسم بتوتّر نحو ماري. عندما فرغ الكوبان، شرعت كارولين في الكلام فورًا.

"أخبرني كولين أنه حكى لك عن طفولته. إنّه يبالغ طول الوقت، ويحوّل ماضيه إلى قصص يرويها على طاولة المشرب، لكنّ طفولته على أيّ حال كانت مُريبة. أمّا طفولتي فكانت سعيدة وبريئة. أنا ابنة والديّ الوحيدة، وكان والدي جدّ لطيف، وشغوفًا بي، ولذا قمتُ بكل ما طلبَ مني. كنتُ قريبةً جدًّا من أمي، كنّا أختَين تقريبًا، وتعاونّا وشَقِينا في الاهتمام بوالدي، أن 'نسند ظهر السّفير' كما كانت تقول دائمًا. كنت في العشرين من عمري عندما تزوّجت روبرت، ولم أعرف شيئًا عن الجنس. إلى ذلك الوقت، كما أتذكّر، لم أشعر برغبةٍ جنسيّة بأيّ درجة. وكان روبرت قد أمضى بعض الوقت حولي. هكذا، بعد محاولة جنسيّة فاشلة بيننا في البدء، بدأت الحياة تنبعث في هذا الأمر شيئًا فشيئًا بالنسبة لي. وتاق روبرت لأن يغدو أبًا، تاق أن يحظى بأولاد، لكن لم ينتُج عن ذلك شيء. الأطباء، لوقت طويل، ظنّوا أنّني

السّبب. لكن في النهاية اتّضح أنّ السّبب هو روبرت، حيواناته المنويّة فاسدة. إنّه حسّاس بهذا الشّأن. قال الأطباء إن علينا الاستمرار في المحاولة. لكن حينها، ثمّة أمر بدأ في الحدوث. أنتِ أوّل من أقول له هذا. لا أستطيع أن أذكر أوّل مرّة حدث فيها ذلك، أو ما الذي كنّا نفكر فيه وقتئذ. لا بدّ أننا تناقشنا حول الأمر، وربما لم نفعل. لا أذكر. راح روبرت يؤذيني أثناء المضاجعة. في البداية لم يكن إيذاءً شديدًا، لكنّه كاف لأن يدفعني للصّياح. حاولتُ جهدي أن أوقفه. ليلة ما انفجرت غاضبة منه، لكنه استمرّ، ولا بدّ أن أعترف، فرغم أن هذا استغرقني وقتًا طويلًا، فإنني استمتعتُ بما يفعل. ربما تجدين صعوبة في فهم ذلك. إنّه ليس الألم في حدّ ذاته، بل حقيقة حدوثه، أن تكون بلا حَول إزاءه ولا قوّة، أن تتضاءلي حتى العدم تحته. إنّه ألمٌ في سياق خاصّ، أن تُعاقبَين، ولهذا تشعرين بالذّنب. كلانا أحبّ ما كان يحدث. شعرتُ بالعار من نفسي، وسريعًا شعرت بلذّة من عاري. بدا لي أنني أكتشف شيئًا كان معي طيلة حياتي. وأردتُ ذلك أكثر فأكثر. أحتاجه. وبدأ روبرت بإيلامي حقًّا. يستخدم سوطًا. يلكمني مرارًا أثناء مضاجعتي. ارتعبت، لكن الألم والمتعة امتزجا فصارا شيئًا واحدًا. وبدل أن يهمس في أذني بكلمات الحب، راح يهمس كلمات كراهية صافية. ورغم أنني سئمتُ إذلاله لي، فإنني رحت أهتاج إلى حدٍّ أفقد وعيي عنده. لم أشكّ قط في كره روبرت لي. لم يكن الأمر مسرحيًّا. ضاجعني باشمئزاز عميق، لكن لم يكن في يدي أن أصدّه. أحببت أن أعاقَب"

"أكملنا حياتنا هكذا بعض الوقت. تُغلّف جسدي الكدمات، والجروح، والرّضوض. كُسرت ثلاثة من أضلعي. روبرت كسر سنًّا

لي. كُسر إصبعي أيضًا. لم أجرُء على زيارة والديّ، وما إن توفّي جدّ روبرت حتى انتقلنا إلى هنا. بالنسبة لأصدقاء روبرت، كنتُ مجرّد زوجة أخرى تتعرّض للضّرب، وهذا ما كنت عليه حقًّا. لم يلاحظ أحد ما يحدث بدقّة، ما وهبَ روبرت مكانَةً خاصّة في الأماكن التي يحتسي فيها الشراب. عندما أكون وحدي وقتًا طويلًا، أو عندما أخرج مع أناسٍ طبيعيّين وأقوم بأمور طبيعية، يُذعرني جنون ما كنّا نفعله وإذعاني التامّ له. بقيتُ أقولّ لنفسي إنّ عليّ الفرار. وحينها، لحظة عودتنا إلى بعضنا، ما كان جنونًا بالنسبة لي يغدو مستحيل التفادي، رغم المنطق، مرّة أخرى. كلانا لم يستطع مقاومته. وغالبًا ما كنت أنا مَن يبادر، وهذا لم يكن صعبًا قط. لطالما تاق روبرت إلى سحق جسدي وتقليله إلى مجرّد بذرة. وصلنا إلى حدٍّ بتنا معه نتقدّم دومًا باحثَين عمّا لم نفعله بعد. اعترفَ لي روبرت ليلةً أن هناك أمرًا واحدًا يتوق إليه حقًّا. أراد أن يقتلني أثناء مضاجعتي.

لقد كان جادًّا في ذلك. أتذكر أننا في اليوم التالي ذهبنا إلى مطعم وتجاذبنا أطراف الحديث حول الأمر وضحكنا منه. لكن الفكرة عاودت الظهور باستمرار. وبسبب احتمال حدوثها الذي ما برح يدوّم فوقنا، تضاجعنا كما لم نفعل قط"

"عاد روبرت ليلةً ما من سهرة شُرب، وكنت لحظتئذ على وشك النوم. اندسّ في السّرير وجذبني من الخلف. همس لي أنّه سيقتلني، لكن قال ذلك قَبْلًا عدّة مرّات. لفّ ساعده حول رقبتي، وراح يعصرها دافعًا ظهري، وفي الآن نفسه جذب رأسي إلى الوراء. فقدتُ وعيي من هول الألم. لكن قبل أن أفقده، أتذكّر أنني فكّرت: سوف تتحقّق بُغيتنا، لا أستطيع العودة عن ذلك الآن. بالطّبع، أردته أن يسحقني"

"كُسر ظهري، فنمتُ في المشفى أشهرًا طويلة. والآن، لن أعود إلى السّير بشكل طبيعي، يتحمّل سبب ذلك جزئيًّا جَرّاحٌ غير كُفء، رغم أن متخصّصين آخرين قالوا إنّه قام بعمله على خير وجه. إنّ بعضهم يحمي ظهر بعض. لا أستطيع الانحناء، تعاودني آلامٌ تبرّح ساقيّ ومُلتقى وركيّ، بات يصعُب عليّ نزول درجٍ، ويستحيل صعوده. ويا للسخرية، الوضعيّة الوحيدة التي أستطيع اتّخاذها مُرتاحةً هي الاستلقاء على ظهري. بحلول ساعة خروجي من المشفى كان كولين قد ابتاع الحانة بالأموال التي ورثها عن جدّه، وأداره بنجاح. هذا الأسبوع باعها لمن وكّله إدارتها. ما اتّفقنا حوله، عندما خرجت، هو أننا سنغدو حذرَين. لقد هزّنا عميقًا ما حدث. أفرغ روبرت طاقته كلّها في الحانة، وصار يزورني طبيبٌ للعلاج الطبيعي هنا في الشقّة عدّة ساعات يوميًّا. لكننا، بالطبع، لم نستطع نسيان ما مررنا به، ولم نكفّ عن التّوق إليه مجدّدًا. إنّنا الشّخصان نفسهما في النهاية، وتلك الفكرة، أعني فكرة الموت، لم تكن لتتركنا لمجرّد أننا أمرناها بالرحيل. لم نتحدّث حول الأمر، كان من المستحيل الحديث حوله، لكنها ظلّت تبرز من خلال الأشياء. عندما أعلن طبيب العلاج الطبيعي أنّني صرتُ قويّة، ذهبتُ إلى الخارج وحدي كي أسير في الشوارع وأشعر أنّني إنسانة طبيعية مجدّدًا. وعندما عدتُ إلى المنزل فوجئتُ أنني لست قادرة على صعود الدرج، ما إن أُسند ثقلي كاملًا على ساق وأدفعها حتى ينتابني ألم فظيع، مثل صدمة كهربائية. انتظرتُ عَودة روبرت في الفناء. وعندما عاد، قال إنّه خطأي أنا، فلقد تركت الشقّة دون استئذانه. كلّمني كأنّي طفلة، ولم يساعدني على صعود الدرج، ولم يسمح لأحدٍ من الجيران بالاقتراب منّي. ربما يصعُب عليكِ تصديق ذلك، لكنني

قضيت الليل كلّه في الخارج. جلست على عتبة بابٍ ما وحاولت النوم، وطول الليل خُيّل إليّ أنني أسمع شخير الناس نائمين في أسرّتهم. وفي الصباح حملني روبرت صعودًا إلى الشقّة، وتضاجعنا لأوّل مرّة منذ خروجي من المشفى"

"افتراضيًّا، صرتُ مسجونة. أستطيع مغادرة الشقّة أيّ ساعة شئت، لكنني لم أكن واثقة من عودتي، وفي النهاية استسلمت. كان روبرت يدفع بعض المال لجارٍ لنا كي يتسوّق لنا، وبالكاد خرجتُ من هنا منذ أربع سنوات. رحتُ أعتني بالمتاع الموروث، مُتحَف روبرت الصّغير. وصنعتُ هذه الجُنَينة هنا. قضيتُ أوقاتًا طويلة وَحدي. لم يكن ذلك سيّئًا". انتفضَت كارولين بغتة وحدّقت بحدّة إلى ماري "هل استوعبتِ ما كنت أقوله؟" أومأت ماري بالإيجاب، فاستعادت كارولين استرخاءها. "جيّد. يهمّني أن تفهمي تمامًا ودون أدنى لَبْس ما كنت أرمي إليه". كانت بأصابعها تلعب بالوُريقات العريضة اللامعة لنبتة أصيصٍ في سور الشرفة. ثمّ جذبت وريقة ميتة ورمتها لتسقط في الفناء. "والآن..." صاحت مُعلنةً، لكنها لم تُكمل جملتها.

اختفت الشّمس خلف سطح بيتهم وراءهما. ارتعشت ماري وكبتت تثاؤبها. "لعلّي لم أضجركِ..." قالت كارولين. كانت جُملة خبريّة أكثر منها سؤالًا.

قالت ماري إنها لم تضجر، وتكلّمت كيف أن قضاءها وقتًا طويلًا في السّباحة، والغفوة الخفيفة تحت الشّمس، ووجبة المطعم الدسمة، دفعها للشّعور بالخمول. ثمّ، ولأن كارولين تابعت التحديق إليها بانتباه، بتوقّع المزيد، أضافت "وماذا الآن؟ هل عودتك إلى ديارك ستساعدك على الاستقلال أكثر؟"

هزّت كارولين رأسها نافية. "سوف أخبرك عن ذلك مع روبرت فور عودته مع كولين إلى هنا". ثمّ راحت تطرح سلسلةً من الأسئلة عليها حول كولين، بعضها كانت قد سألتها سابقًا. هل ابنا ماري مهووسون به؟ هل يكترث لهما ويهتمّ بهما؟ هل يعرف كولين طليقَها؟ وخلال أجوبة ماري المختصرة المؤدبة، كانت ماري تومئ برأسها، كأنها تشطب نقاطًا من قائمةٍ ما.

وحين سألت بغتةً هل قامت مع كولين بأمورٍ "مُريبة"، ابتسمت ماري ابتسامة هزليّة مستخفّة. "عُذرًا، إنّنا شخصان طبيعيّان إلى أبعد حد. استوثقي من ذلك منّي". صمتت كارولين، وثبّتت عينيها في الأرض. مالت ماري إلى الأمام لتلمس يدها، "لم أقصد أن أبدو وقحة، فلستُ أعرفك جيّدًا. كان عندك ما تقولين وقد قلتِه، وهذا أمرٌ جيّد. لم أجبرك على ذلك". بقيَت كفّ ماري على يد كارولين لحظاتٍ معدودة، تضغط بلُطف.

كولين أطبقت عينيها. ثمّ جذبت يد ماري وانتصبت بأسرع ما أمكنها. "هناك ما أريدك أن تريه" قالت أثناء بذلها جهدها في النهوض.

نهضت ماري تلبيةً لطلبها، وكي تساعدها على النهوض أيضًا، ثم قالت "أليس ذاك كولين في البُعد هناك؟" وأشارت إلى قامَةٍ وحيدة عند رصيف الميناء، بالكاد تُرى من فوق أعالي الأغصان.

نظرت كارولين ثم شهقت "أحتاج إلى نظّارتي كي أستطيع الرّؤية عبر هذه المسافة كلّها". كانت ما تزال تتشبّث بيد ماري فيما تستدير نحو الباب.

ذهبا خلال المطبخ إلى غرفة النوم الغارقة في ظُلمة غبشة بسبب الدّرفات المغلقة. رغم كل ما قالته كولين عن ما يحدث هناك، بدت

الغرفة عاديّة دون أيّ استثناء. وكما هو في غرفة الضيوف الواقعة في النهاية الأخرى من الرّواق، ثمّة باب يتكوّن من شفرات خشبيّة مستعرضة مفتوحة، يُفضي إلى حمّام آجَرِيّ. كان السّرير عريضًا، مفروشًا بأغطية خضراء باهتة، ناعمة الملمس.

جلست ماري على حافة السرير وقالت "ساقاي تؤلمانني" كأنها تحدّث نفسها، لا ماري، التي كانت تفتح درفتَي النافذة. فاضت الغرفة بضوء آخر النهار، وانتبهت ماري إلى أن الجدار جوار النافذة، الجدار الذي يمتدّ وراءها خلف السرير، يحمل لوحًا مبطّنًا بنسيج أخضر ثُبّتت إليه فوتوغرافات كثيرة جدًّا، بعضها فوق بعض مثل أعمال الكولّاج، أغلبها بالأبيض والأسود، قليلٌ منها ملوّن وهي فوتوغرافات التُقطَت بآلة تصوير بولارويد، كلّها صور لكولين. أزاحت ماري نفسها إلى داخل السرير أكثر كي ترى بوضوح. جاءت كارولين وجلست جوارها. "إنّه كائنٌ جميل" قالت كارولين بنعومة. "شاهدَكما روبرت، صُدفةً، يومَ وصولكما". ثمّ أشارت إلى صورة لكولين واقفًا جوار حقيبة سفر، وبين يديه خريطة المدينة. وكان يتحدّث إلى أحدٍ وراءه، ربما ماري، خارج إطار الصّورة. "كلنا يعتقد أنّه وسيمٌ جدًّا" قالت كارولين ولفّت ذراعها حول عاتق ماري. "التقط روبرت كثيرًا من الصور يومئذ، لكن تلك الصّورة هي أوّل ما وقعت عليه عيني. لن أنساها أبدًا. كان بالكاد قد رفع عينيه عن الخريطة. جاء روبرت إلى المنزل تغمره الحماسة يومئذ. وبينما كان يعود إلى المنزل بمزيدٍ من الصّور يوميًّا ..." – أشارت كارولين إلى الفوتوغرافات المثبّتة كلّها – "عدنا نقترب من بعضنا أكثر فأكثر. كانت فكرتي أن نعلّقها هنا، حيث يمكننا رؤيتها كلها بنظرة واحدة. كنا نستلقي هنا، نمضي الصّباح الباكر في التّخطيط.

لن تصدّقي كمّ الخطط التي كان علينا رسمها واتّباعها"

أثناء مواصلة كارولين الكلام، مسّدت ماري ساقيها، حينًا تدلّكهما، وحينًا تحكّهما، وتحملق في الصّور، فسيفساء حياتها خلال الأسبوع الفائت. ثمّة صور فهمَت سياقها وما يحدث فيها فورًا. عددٌ منها أظهرت كولين في الشرفة بوضوح أكبر من الأخريات الغبشة الطّباعة. ثمّة صور لكولين يدخل الفندق، وأخرى له يجلس وحيدًا في المقهى العائم، وله يقف في زحام، وله بينما حمائم تتحلّق حول قدميه وبُرج السّاعة الضخم وراءه. وهناك صورة له يستلقي عاريًا في فراش. وله صور أخرى غير مفهومة السياق. إحداها التُقطت ليلًا، في إضاءة ضعيفة، له ولماري يعبران حيًّا خاويًا، أمامهما كلب. بعض الصور تعود لكولين وحده، وبعضها له وحده أيضًا لكن تكبير الصّورة عدّة مرّات لتسليط اللقطة عليه أدى إلى إهمال ماري خارجها دون أن يبقى منها سوى ذراع أو كتف، أو جزء لا معنى له من وجهها. بدت الصّور معًا وكأنها توثّق ما تألفه من تعابير مختلفة لكولين: تكشيرة الحيرة، والشفتين اللتين تتغضّنان حين يوشك على الحديث، والعينين اللتين للتوّ ذبلتا من أثر التحبّب. بدا أن كلّ صورة تثبّت زاويةً مختلفة لذاك الوجه الرّقيق وتحتفي بها في الوقت نفسه: الحاجبين اللذين يوشكان على الالتقاء في نقطة معيّنة، والعينين العميقتين، وخطّ الفمّ الطويل المستقيم الذي بالكاد ينفرج عن لمعة سنّ. "لماذا؟" قالت ماري أخيرًا. نمى في لسانها خدَرٌ فبات ثقيلًا، واسترخا خلال نطقها السؤال. "لماذا؟" كرّرت بإصرار أكبر، لكنّ الكلمة، لأنها عرفت بغتة الجواب، باتت هامسة. ضمّت كارولينُ ماري بإحكام إليها وتابعت الكلام. "ثمّ جلبكما روبرت إلى المنزل. بدا كأنّ الله يُعيننا على تحقيق خططنا.

دخلتُ عليكما غرفة الضيوف. لم أكتم عنكِ سرًّا ولم أُخفي شيئًا. عرفتُ حينها أن الخيّال يعبر طريقه إلى الواقع. هل جرّبتِ ذلك من قبل؟ إنّه أشبه بمدّ خطوةٍ لدخول مرآة"

عينا ماري على وشك أن تغمضا. صوت كارولين يبتعد عنها. أجبرت عينيها على البقاء مفتوحتين وحاولت النهوض، لكن ذراع كارولين كانت ملتفّة حولها بإحكام. انطبقت عيناها أخيرًا وهمست باسم كولين. كان لسانها جدُّ ثقيل لترفعه داخل فمها كي تنطق "ل"، احتاجَ إلى أناسٍ عديدين كي يرفعوه، أناس لا تحوي أسماءهم حرف اللّام. كلمات كارولين تُحيط بها، تثقلها، لا معنى لها، ألعابٌ بهلوانيّة تخدّر ساقيها. ثم صفعت كارولين وجهها وبدا كأنها تستيقظ في وقت آخر من التاريخ. "كنتِ نائمة" قالت لها، " كنتِ نائمة، كنتِ نائمة. لقد عاد كولين وروبرت. سيكونان في انتظارنا. هيّا" ثمّ جذبتها وأوقفتها، ثمّ ثنَت ذراعها المرتخية وألقتها على عاتقها، وسارت بها خارج الغرفة.

- 10 -

الرّواق، بنوافذه الثلاثة المشرعة على اتّساعها، توهّج ساطعًا بضوء آخر النهار. وقف روبرت، ظهره إلى نافذة، يُزيل بصبرٍ شبكة معدنيّة تحيط بعنُق قنّينة شامبين بين يديه. عند أقدامه غلافها الذهبيّ مجعّدًا، وإلى جانبه كولين، وكأسان قبالتهما معدّين، ما زالتا تتكهّفان بفراغ الغرفة. الرجلان كلاهما استدارا يُلقيان التحيّة على المرأتين اللتين دخلتا عليهما خارجتين من المطبخ. نصبَت ماري قامتها وباتت الآن تسير سيرًا متقاربًا، خطوات مهزوزة، ويدٌ لها ترتاح على عاتق كارولين.

العَرَج المؤلم، المشي بجرّ القدمين كأنّما في النوم، تُبطئ من تقدّمهما نحو الطاولة المرقّعة، وكان كولين قد تقدّم نحوهما بضع خطوات سائلًا "ماذا بك، ماري؟" وفورًا فرقعت سُدادة القنّينة، وصاح روبرت للكأسين بحدّة. تراجع كولين ورفع الكأسين بينما يراقب جانبيًّا بقلقٍ ماري التي كانت كارولين تُجلسها على أحد المقعدين الخشبيّين

الباقيين، وقد وجّهت المقعد لتقابل ماري جالسةً الرّجُلَين. انفرجت شفتا ماري ناظرةً إلى كولين. كان يسير نحوها بكأس ممتلئة في يده، كأنّه في فيلم حركة بطيئة. الضوء خلفه شعّ بعض ضفائره الحُرّة، ووجهه الذي بقيَ أليفًا على عكس وجهها المُتعَب، تغضّن بالقلق. وضع روبرت القنّينة على خوانه، ولحق كولين عبر الغرفة. أمّا كارولين فانتصبت متأهّبة جوار مقعد ماري مثل ممرّضة. "ماري،" قال كولين "ما الخطب؟"

تحلّقوا حولها. ضغطت كارولين راحة كفّها على جبين ماري "إنّها ضربة شمس خفيفة" قالت بهدوء. "لا شيء يدعو للقلق. قالت إنكما سبحتما طويلًا واستلقيتما أيضًا تحت الشمس"

تحرّكت شفتا ماري. أخذ كولين يدها "إنها لا تشكو من حُمّى"، قال. انتقل روبرت للوقوف خلف المقعد، وأراح ذراعه على عاتق كارولين. اعتصر كولين كفّ ماري، وحملق في وجهها. عيناها، اللتان اتّسعتا توقًا، أو يأسًا، كانت ثابتتين في عينيه، ودمعةٌ سقطت من أحدهما على جسر وجنتها. مسحها كولين بسبّابته. "هل أنت مريضة؟" همس لها سائلًا. "هل تعرّضتِ إلى ضربة شمس؟" فأطبقت عينيها لحظة وتحرّك رأسها حركة واحدة من جهةٍ إلى أخرى. أضعف الأصوات، بالكاد أعلى من نَفَس، غادر شفتيها. مال كولين قريبًا إليها ووضع أذنه على شفتيها "أخبريني،" استعجلها القول "حاولي أن تُخبريني". بحدّة سحبت نفَسًا، وحبسته ثواني عدّة، ثمّ لفظت بصعوبة حرفًا مخنوقًا من آخر حلقها "ك". "هل تحاولين أن تقولي اسمي؟" فغَرَت ماري فاهها أكثر، وراحت تلتقط أنفاسها سريعًا، أقرب إلى اللهاث. تشبّثت بيد كولين بحركة ضارية. مرّة أخرى، التقاطُ نفسٍ حادّ، حبسُه ثواني

عدّة، والصّوت البعيد "ك" ثم حاولت مجدّدًا بصوتٍ أنعم "كا...كا" ألصق كولين أذنه أكثر بشفتيها. روبرت أيضًا مال قريبًا إليها. وبجهد خارق آخر قالت "غ...غا" ثمّ همست "غادر".

"بارد" قال روبرت، "إنها تشعر بالبرد".

دفعت كارولين كتف كولين بحدّة "يجب علينا ألّا نلتمّ حولها هكذا، نحن بذلك لا نساعدها"

نزع روبرت معطفه الأبيض وألقاه على كتفَي ماري. كانت ما زالت تتشبث بكفّ كولين، ووجها مرفوع إلى وجهه، وعيناها تدوران في وجهه تريدان استيعاب ما يحدث. "تريد أن تغادر" قال كولين بنفاد صبر. "إنها في حاجة إلى طبيب" ثمّ حرّر كفّه من قبضة ماري وراح يربّت معصمها. ثمّ راقبته يَحير سائرًا في أرجاء الرّواق. "أين هاتفكما؟ لديكما هاتف بالتأكيد". ثمّة ذعرٌ يطفُر من صوته. روبرت وكارولين، ما زالا متقاربين، يتبعانه، ويحجبان عن ماري رؤيته. حاولت مرّة أخرى أن تصدر صوتًا، لكن حلقها كان ناعمًا دون فائدة، ولسانها ثقيلٌ لا يتزحزح عن سرير فمها.

"نحن راحلان" قالت كارولين في محاولة لتهدئته، "ولذا فإن خطّ الهاتف قد فُصِل"

دار كولين عبر الرّواق حتى وصل النافذة الوسطى، واستدار الآن معطيًا ظهره إلى خوان روبرت، وقال لكارولين "اذهبي إذًا وتدبّري أمر إحضار طبيب، إنّها مريضة جدًّا".

"لا داعي للصّياح" قال روبرت بهدوء فيما ما زالا، هو وكارولين، يتقدّمان نحوه. ماري كانت تلاحظ كيف أن كفّي كارولين وروبرت متشابكتان، أصابعهما مقفلة بإحكام، تتلاطَف أصابعهما وتنبض بتوتّر.

"ستكون ماري بخير" قالت كارولين. "احتست شيئًا مميّزًا مع شايها، لكنها ستبيت بخير"

"شاي؟" ردّد كولين بحماقة. وأثناء تقهقره لتقدّمهما، دقّ الخزان وقلب قنّينة الشّامبين.

"يا للخسارة،" قال روبرت، فيما التفت كولين سريعًا وعدّل وضع القنّينة. استدار روبرت وكارولين حول البقعة على الأرضيّة، ومدّ روبرت يده نحو كولين، كأنه يريد أن يلتقط ذقنه بين إبهامه وسبّابته. رفع كولين رأسه إلى الوراء ثم تقهقر خطوةً أخرى. الآن، خلفه مباشرة، نافذة مشعّة. من مكانها تستطيع ماري رؤية السماء الشرقيّة وكيف راحت ترقّ أكثر فأكثر، وكيف أن آثارَ السّحُب العالية راحت تمتدّ مثل أصابع طويلة مستدقّة كأنّها تُشير إلى حيث ستغرب الشّمس.

افترق الزوجان، ولزِمَ كلّ واحدٍ منهما جانبًا من كولين والتحم به. كان ينظر أمامه إلى ماري، وكل ما استطاعت فعله حينها هو شقّ فُرجة طفيفة بين شفتيها. وضعت كارولين كفّها على صدر كولين وراحت تمسّده بينما تتكلّم "ماري تفهّمت الأمر، لقد شرحتُ لها كلّ شيء. وأظنّك، سرًّا، فهمت أيضًا". راحت تجذب أطراف قميصه المدسوسة تحت بنطاله. أمّا كولين فأبقا ذراعه الممدودة أفقيًا في مستوى رأس كولين وأسندها إلى الجدار، يُغلق عليه المساحة بينهما. كارولين تربّت بطنه، وبلُطف تقرص جلدته بين أصابعها. ورغم أن ماري كانت تقابل مصدر الضوء، والأشخاص الثلاثة بدوا هيئاتٍ ظِلّيّة إزاء السماء خلفهم، رأت بوضوحٍ وصفاء دقّةَ كلّ حركة فاحشة، كلّ تفصيل فارق بين خيال داعر وآخر. حدّة رؤيتها جفّفت أيّ قُدرةٍ تحملها على الكلام أو الحركة. يدُ روبرت الحُرّة راحت تستكشف قسمات وجه

كولين، يُفرج شفتيه بأصابعه، يتتّبع خطوط عظام أنفه وفكّه. وطول دقيقة كاملة، وقف كولين ثابتًا دون أدنى مقاومة، شلّه جهله المحض بما يحدث. فقط وجهه تقلّب بين الخوف والرّوعة، يتغضّن في حَيرة وجهدٍ لاستدعاء الذّاكرة. وبقيت عيناه ثابتتَين في عينيها.

صخب آخر النهار ارتفع من الشوارع المزدحمة في الأسفل – كلام، وقرقعة مواعين، وأصوات صادرة عن أجهزة تلفاز – لكنها بدل أن تملأ الرّواق، راحت تصوّت فراغه وتُعاظمه. بدأ جسد كولين يتصلّب. لاحظت ماري رجفة ساقيه، الانشداد عبر بطنه. وَشْوَشت ماري صوتًا مهدّئًا، وأرست كفّها تمامًا تحت قلب كولين. لحظتئذ، اندفع كولين إلى الأمام، يمدّ ذراعيه أمامه مثل غوّاص، دافعًا وجه كارولين عن طريقه بساعده، قابضًا على كتف روبرت، دافعًا إيّاه خطوة إلى الوراء. تقدّم كولين نحو ماري خلال الفراغ بين كارولين وروبرت، يداه ما زالتا مرفوعتين، كأنه سوف ينتشلها من مقعدها ويطير بها نحو الأمان. خلال ذلك استعاد روبرت توازنه واندفع قابضًا على كاحل كولين، وعثره ليسقط أرضًا، على بُعد خطوات قليلة من مقعد ماري. كان بالفعل يحاول النهوض حين رفعه كولين قابضًا على يدٍ له وساق، وبين حمله وسحبه، أعاده إلى حيث تقف كارولين تتلمّس وجهها. وهناك، أنهض كولين على قدميه ثمّ دفعه بقوّة ليرتطم بالجدار، ثمّ أحاط عنقه بساعدٍ مشدود.

والآن، عاد الثلاثيّ ليجتمع قبالة ماري كما كانوا سابقًا، في مواقعهم نفسها. وقع الأنفاس الثقيلة هدأت سريعًا، وعاود الصّخب المجاور ارتفاعه، مؤطّرًا صمتَ الرّواق.

أخيرًا قال روبرت في هدوء "لم يكن ذاك ضروريًا ألبتّة، أليس كذلك؟"

وشدّ قبضته "أليس كذلك؟" فأومأ كولين بالإيجاب، وحرّر روبرت قبضته.

"انظر،" قالت كارولين "لقد جرحتَ شفَتي"، ثمّ أخذت دمًا من شفتها السّفلى بسبّابتها ومسحته على شفة كولين. لم يقاومها. ما زالت كفّ روبرت ترتاح على قاعدة عنق كولين، قريبًا من حلقه. تابعت كارولين أخذ دمٍ من شفتها ومسحه بشفتَي كولين حتى غطّته بحُمرة تشب الرّوج. ثمّ روبرت، ضاغطًا أعلى صدر كولين، قبّل شفته بشغف، وفيما يفعل ذلك، أجرت كارولين كفّها على ظهر روبرت.

وعندما استقام روبرت، بصق كولين بعلوّ بصقاتٍ عدّة. مسحَت كارولين بقايا خيوط بصاقه الورديّ عن ذقنه بظهر كفّها. "صبيٌّ شقيّ"، قالت.

"ما الذي سقيتماه ماري؟" سألهما كولين، كانت رؤوسهم متوازية. "ما الذي تريدان؟"

"نريد؟" قال روبرت. وكان قد استلّ شيئًا من خوانه، لكنّه أبقاه مضمومًا في كفّه، ولم تستطع ماري أن ترى ما هو. "نريد؟ هذه ليست كلمة دقيقة". تراجعت كارولين خطوةً عن كولين والتفتت لحظة تنظر إلى ماري. "ما زلتِ مستيقظة؟" صاحت بها، "هل تذكرين ما أخبرتك به كلّه؟"

كانت ماري تراقب الشيء الذي يقبض عليه روبرت. بغتةً تضاعف طوله، فرأته واضحًا، وأحسّت أن كلّ عضلة في جسمها انشدّت، فقط أصابع كفّها اليمنى طريّة ومعقوفة. صرخت، ثمّ صرخت ثانية، لكن كلّ ما صدر عنها هو زفرة هامسة.

"سأُفعل ما تريد"، قال كولين، لكن نبرته المتوسّطة العلوّ ضاعت

عندما علا صوته في ذُعر "لكن اجلب طبيبًا لماري"

"حسنٌ إذًا" قال روبرت، وأخذ ساعد كولين وقلبَ راحة كفّه إلى أعلى.

"انظر، ما أسهل الأمر" قال، ربما لنفسه، ورفع شفرة الحلاقة بخفّة، كأنّه يلعب، ثمّ أجراها على رسغ كولين، فاتحًا شريانه على اتساعه. انتفضت ذراعه إلى الأمام، وخيط الدم الذي طفر، وقد بدا برتقاليًّا في ضوء آخر النهار، سقط قريبًا من حجر ماري، على بُعد إنشاتٍ قليلة. أغمضت ماري. وحين فتحت عينيها، كان كولين ثاويًا على الأرض، عند الجدار، ورجلاه منفرجتان أمامه. نعله الشاطئيّ القماشيّ غرق متشبّعًا بلون قرمزيّ. رأسه يتأرجح بين كتفيه، لكن عينيه ثابتتان صافيتان، وتحملقان في ماري عبر الرّواق في تكذيب لما يحدث.

"ماري؟" قال قلقًا، مثل شخصٍ ينادي أحدًا في غرفة مظلمة. "ماري؟ ماري؟"

"أنا قادمة" قالت ماري. "أنا هنا".

عندما استيقظَت بعد نومٍ طويل، كان رأسه يتوسّد الجدار ويتوسّطه، بينما جسده قد انكمش كثيرًا. وعيناه، ما زالتا مفتوحتين، تنظران إليها، كانتا متعبتين، ودون أيّ تعبير. رأته على مبعدة، لكن عينيها حصرتا مجال رؤيتها به، يجلس أمام بُقعة احمرّت أكثر بسبب خطوط ضوءٍ تنفذ من الدرفات نصف المغلقة الآن.

في اليوم التالي، تذكّرت أن كلّ ما حلُمت به كان طافحًا بالشّكوى والأنين، وصرخات مذعورة مباغتة، كلّها تصدر عن قاماتٍ متقاربة تحيطها، بينما يتموّج انعكاسها عل بُقعة دم في الأرضية، وتنادي صائحةً بمُتعة. أيقظتها الشّمس التي أشرقت فوق الشّرفة، مُدفئةً

عنقها خلال ألواح أبواب الشرفة الزجاجيّة. ساعات، ساعات طويلة مضت، فكلّ الآثار التي على الأرض جفّت، والحقائب جوار باب الشقّة اختفت.

قبل قطع الطريق المرصوفة بالحصى نحو أبواب المشفى، وقفت ماري طالبةً الرّاحة في ظلّ بيت حراسة المشفى. الموظّف الرّسميّ الذي يرافقها كان صَبورًا عليها. أراح على الأرض حقيبة يده، ونزع نظارته ونظّفها بمنديلٍ استلّه من جيبه العلويّ. نسوةٌ كُنّ يجهّزن أكشاكهنّ، استعدادًا لاستقبال زوّار الصباح. ثمّة شاحنةٌ مهترئة وذات هيكلٍ ممـوّج على الجانبَين، توصل ورودًا إلى بعض الباعة. وهناك امرأة تستخرج صلبانًا وتماثيل وكتب صلاة من حقيبة مخصّصة للسّفر، لتعرضها على طاولة قابلة للطيّ. في البُعد، قبالة أبواب المشفى، عاملُ حديقة يسقي الزّرعَ على جانبَي الطريق المرصوفة. تنحنح الموظّف الرسميّ بهدوء، فأومأت ماري، ونهضا معًا ليدخلا المشفى.

اتّضح لها أن المدينة المزدحمة الصّاخبة، تُديرها بيروقراطيّة صعبة ومتفرّعة، نظامٌ حكوميّ ذو أقسام متفرّعة ذات مهام عدّة متقاطعة، وإجراءات مستقلّة وتسلسل هرميّ. اتّضح لها أيضًا أن تلك الأبواب البسيطة، التي عبرت جوارها مرارًا في السّابق، لم تكن تقود بالضرورة إلى منازل أسريّة، بل إلى غرف انتظار فارغة ذات ساعات تشبه تلك التي في محطّات القطارات، وتضج بأصوات الطّباعة على الآلات؛ إنها تقود إلى مكاتب ضيّقة ذات أرضيّات بنيّة مشمّعة. لقد استجوبوها، وأعاد استجوابها أكثر من موظّف، وصوّروها، ووثّقوا أقوالها، ووقّعت مستندات، وحملقت في صور مشتبه بهم. حملت ظرفًا مغلقًا

من قسم إلى آخر، واستُجوبَت مجدّدًا. الرّجال الشبّان المتعبون، في ستُرات فضفاضة – شُرطة، ربما، أو موظّفون مدنيّون – عاملوها باهتمام، كما فعل مسؤولوهم. لكن ما إن استوثقوا من أمر زواجها، وتحقّقوا من أن ابنيها يقبعان مئات الأميال بعيدًا عنها، وخصوصًا عندما أصرّت في إجابتها على سؤال تكرّر مرارًا أنها لم تكن تنوي الزواج من كولين، عوملَت بحذر وشكّ. باتت مصدرَ معلومات أكثر منها شيئًا محطّ اهتمام.

لكنها لو استشعرت أساها حينئذ لكان كسرها. فصدمَتُها وصلت إلى مراحل متقدّمة، مشاعرها لم تكن حاضرة معها. قامت بما طُلب منها القيام به تمامًا دون اعتراض، وأجابت على كلّ سؤال. افتقارها المشاعر زاد الشكّ حولها. في مكتب مساعد مفوّض الشّرطة، مُدحَت دقّتها في استحضار أجوبتها ومنطقها الثابت خلالها، وحرصها على تفادي أيّ مشاعر مشوّشة. قال الموظف بانتعاش "لا تبدو كأقوال امرأة أبدًا" فانطلقت بضع ضحكات خفيضة خلفها. وفيما لم يصدّقوا أنها أقدمت على أيّ جُرم، عوملَت كذلك بسبب أن مساعد مفوّض الشّرطة لوّث أقوالها بقوله – وقد ترجم لها قوله هذا – "الإفراط في الفُحش". خلف أسئلتهم يكمن افتراض – أو لعلّ ذلك من وحي خيالها؟ – أنها تنتمي إلى ذاك النوع من الناس الذي يُتوقّع تواجدهم في جرائم مشابهة، مثل مُشعِل حرائق يتواجد في حريقٍ ليس له يد فيه. لكنّهم كانوا مهذّبين، في الوقت نفسه، فقد حرصوا على أن يعيدوا على مسامعها أحداث الجريمة كأنها جريمة شائعة وقد تعبوا من تكرار حدوثها، كأنها تنتمي إلى تصنيفٍ مُعدّ سابقًا لجرائم مشابهة. هذا القسم تعاطى مع عدّة جرائم مماثلة، تختلف في التفاصيل الدقيقة

بالطبع، خلال العشر سنوات الماضية. أحد رجال الشّرطة ذوي المواقع المهمّة، قدّم إليها كوب قهوة في غرفة الانتظار وجلس جوارها، وراح يشرح لها بعض الخطوط العريضة المميّزة في الجريمة. مثلًا، الضحيّة كانت ظاهرة علنًا أمام المُهاجِم، وبالطّبع يعرفان بعضهما. ثمّ، موضوع التناقض في الاستعدادات: من جهة، استعداداتٌ شاملة – راح يعدّ بأصابعه الثّخينة – التصوير، والاستحواذ على المخدّر، وبيع محتويات الشقّة، والحقائب المعدّة قبل وقت الحادثة؛ ومن جهة أخرى، أمورٌ لا تلاءم الأولى – ألغاها واحدة تلو أخرى – ترْكُ شفرة الحلاقة في مسرح الجريمة مثلًا، وتوثيق حجز الطيران، والسّفر بجوازات يعتدّ بها.

قائمة الشرطيّ كانت أطول من ذلك، لكن ماري كفّت عن الاستماع إليه. ختمَ كلامه بالتّربيت على ركبتها والقول إن القبض على أولئك الشّخصَين ومعاقبتهما كان أمرًا يهمّ المجرمَين أهميّة قيامهما بالجريمة نفسها. شهقت ماري. إن كلمات "الضحيّة" و"المهاجم" و"الجريمة نفسها" لم تعنِ لها شيئًا، وتُشير إلى لا أحد.

في غرفة الفندق، طوت الثياب ووضّبتها في حقائب منفصلة. ثمّة في حقيبة كولين مساحة صغيرة متاحة، فوضعت أحذيتها مع معطف قطنيّ بين أشيائه، كما فعلت في رحلة القدوم. وَهبَت بقايا المال والفكّة المتبقيّة للخادمة، ودسّت البطاقات البريدية بين صفحات جوازها الأخيرة. فتّتت ما بقي من الماريوانا وأجرت عليه الماء في حوض المغسلة. في المساء هاتفت ابنيها. كانا لطيفَين معها لكنّهما بعيدَين، وسألاها مرارًا أن تكرّر كلامها. استطاعت أن تسمع صوت التلفاز من حيث كانا، ومن جانبها سمعت صوتها خلال السمّاعة، يستجدي

تعاطفًا. دخل زوجها السّابق في الخطّ وأخبرها أنه يعدّ صلصة الكاري، وهل هي قادمة لأخذ ابنيهما عصرَ الخميس؟ وهل تستطيع أن تكون أكثر دقّة؟ بعد انتهاء المكالمة جلست على حافة السّرير وقتًا طويلًا تقرأ ما طُبع على تذكرة الطيران. في الخارج كانوا يقرعون بأدواتهم المعدنية مجددًا على ظهر المراكب كما هي العادة.

إزاء أبواب المشفى، أومأ الحارس ذو الزيّ الموحّد من فوق رأسها إلى الموظّف الرسميّ. هبطا الدرج طابقين، ثم سارا في ردهة باردة خاوية من أيّ أحد. عُلّقت على الجدار خلال مسافات متساوية أسطوانات حمراء لخراطيم مياه، تحتها عُلَب رمل. توقّفا عند باب ذي نافذة مدوّرة. طلب منها الموظف الرسميّ الانتظار، ودخل قبلها. ثمّ، بعد نصف دقيقة، فتح الباب لها وفي يده حزمة ورق. كانت الغرفة ضيّقة، دون نوافذ، ومعطّرة بعطر ثقيل، ويضيؤها شريطٌ من الضوء الفلورسنتيّ. دخلا بابًا متأرجح الدرفتين في نهاية الغرفة، ذا نوافذ دائريّة أيضًا، أفضى بهما إلى غرفة أوسع، يضيؤها صفّا إنارة مغلّفة واضحان للعيان. الطاولة العالية الضيّقة الذي سُجّي كولين فوقها، تقف متوسّطة الغرفة. إلى جوارها مقعد خشبيّ دون ظهر. كولين نائم على ظهره ومغطّى بشرشف. أزاحه الموظّف الرسميّ بمهارة وألقى نظرة سريعة إلى ماري. التعرّف على الجثّة، بوجودها ووجود الموظّف، وُثّق رسميًّا. وقّعت ماري، ثمّ وقّع الموظّف وانسحب من المكان بحذر. جلست ماري على المقعد ووضعت كفها في كفّ كولين. كانت في مزاجٍ لشَرح ما حدث، كانت على وشك الحديث إليه. همّت أن تروي له ما قالته كارولين لها في الشّرفة قبل عودته مع روبرت بأدقّ صورة تذكرها، وبعدها ستفسّر ما حدث له، تخبره نظريّتها، أو فرضيّتها

في هذه المرحلة، بالطبع، التي تفسّر الخيالات، الخيالات الجنسيّة، أحلام الرّجل القديمة في الإيذاء، وأحلام النساء في أن يؤذَين، ينتظمها ويضمّها مفهوم جبّار واحد يشوّه العلاقات جميعها، والحقيقة بأكملها. لكنها لم تفسّر شيئًا، فأحدهم رجّلَ شعر كولين إلى الاتجاه الخطأ. فأعادت ترجيله دون أن تنبس بحرف واحد. أمسكت ساعده وأقلقت راحة أصابعه. حركت اسمه بين شفتيها مرارًا دون أن تنطق به، كأنّ التكرار كفيل بإعادة المعنى إلى إليه، وبعث الحياة مجدّدًا فيمن يعنيه. يعاود الموظّف الرسميّ القَلِق ظهوره عند النافذة المدوّرة بين فترات متفرّقة. بعد مضيّ ساعة، دخل الغرفة رفقة ممرّضة. وقفَ خلف المقعد، بينما الممرّضة، متذمّرة كأنها تتذمّر من طفل، رفعت أصابع ماري عن أصابع كولين وقادتها إلى الباب.

تبعت ماري الموظّف الرّسمي طول الرّدهة. وفيما يصعدان الدرج، لاحظت أن كعبَي حذاءه اهترآ بمستويَين متفاوتين. عمّها شعور بالحياة الاعتياديّة لحظة، فلمست وحيًا قصيرًا من الحزن الذي ينتظرها. تنحنحت بصوت عال، جرف معه ما لمسته توًّا.

الموظّف الرسميّ، الرّجل الشابّ، خطا أمامها في أشعّة الشّمس، ووقف ينتظرها. وضع حقيبته على الأرض، أصلح حال كُمّي قميصه المنشّا. وبكياسة، وأقلّ انحناءة ممكنة، عرض عليها أن يرافقها عائدةً إلى الفندق.

المؤلف

إيان مكّيوان روائيّ بريطاني وُلد عام 1948. ألّف أكثر من سبع عشرة رواية. وصلت رواياته «الارتياحُ للغرباء» و«كفّارة» و«كلاب سوداء» إلى القوائم القصيرة لجائزة مان بوكر، وفاز بها عام 1988 عن روايته «آمستردام»، وقد فازت كتبه الأخرى بجوائز عديدة. ألّفَ أيضاً سيناريوهات للمسرح والتلفزيون. أدرجته صحيفة التايمز في قائمة أفضل خمسين روائيًّا بريطانيًّا منذ عام 1945، وحصد الترتيب 19 في قائمة الديلي تيليغراف لأقوى 100 شخصيّة في الأوساط الثقافيّة البريطانيّة. يُقيم حاليًّا في لندن.

المترجم

أحمد العلي هو شاعر من السعودية، يعمل في ترجمة الكتب الأدبيّة وتحريرها. ألّف أربعة كتب من بينها (دليل التائهين إلى نيويورك) و(لافندر)، وترجم إلى العربية عدّة كتب أدبية من بينها (اختراع العزلة) و(حليب أسود). يعمل ويعيش في دولة الإمارات.

alaliahmed.com